ثيودور هرتسل



الطبعة العربية الثالثة

ترجمة
محمد يوسف عدس
مستشار سابق بمنظمة اليونسكو

تقديم ومراجعة
أ.د. عادل حسن غنيم
رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع



The Jewish State

The Third Arabian Print

Translated By
Mohamed Yusuf Ades

Review and Introduction By
Professor Adel Hassan Ghoneym

Al-Imām al-Bokhāry
Publisher

الدولة اليهودية

بسم الله الرحمن الرحيم

تيودور هرتسل

الدولة اليهودية

الطبعة العربية الثالثة

ترجمة
محمد يوسف عدس
مستشار سابق بمنظمة اليونسكو

تقديم ومراجعة
أ.د. عادل حسن غنيم
رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع



الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٤٧٢٩ / ٢٠٠٩م

ISBN
978- 977- 481- 034- 3

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

هيرتسل ، ثيودور .
الدولة اليهودية : الطبعة العربية الثالثة / ثيودور هيرتسل ؛ ترجمة محمد يوسف عدس ؛ تقديم ومراجعة عادل حسن غنيم . ـ القاهرة : مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٩ .
١٦٠ ص ؛ ٢٤سم .
تدمك ٣ ٠٣٤ ٤٨٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ـ اليهودية ـ تاريخ أ ـ عدس ، محمد يوسف (مترجم)
ب ـ غنيم ، عادل حسن (مُقدِّم ومُراجع) ج ـ العنوان . ٠٤ و ٩٠٩٠

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

القاهرة : ٣ درب الأتراك ـ خلف الجامع الأزهر ـ ت ٢٥١٤٤٠٧٣
جوال ٠١٢/٣٦٧٦٧٩٧ ـ ٠١٠/٦١٨٦١١٤

هذه ترجمة لكتاب

The Jewish State : Theodor Hertzl



فهرس المحتويات

ثيودور هرتسل ١١
تعريف بالمترجم ١٢
تعريف بالمُرَاجع وكاتب الدراسة ١٤
تقديم الطبعة العربية الثالثة ١٥
تقديم الطبعة العربية الثانية ٢٤
تقديم الطبعة العربية الأولى ٣٤
« الدولة اليهودية لـ ثيودور هرتسل » ٥٥
تقديم الطبعة الإنجليزية (حاييم وايزمان) ٥٧
مقدمة المؤلف ٦٥
تمهيد ٦٩
١ـ المسألة اليهودية ٨٧
- محاولات سابقة للحلّ ٩٢
- أسباب العَدَاء للسّامية ٩٥
- آثار العداء للسّامية ٩٧
- الخُطّة ٩٨
- فلسطين أم الأرجنتين ١٠١
- الحاجة ، الوسيلة ، التجارة ١٠٣
٢ـ الشّرِكة اليهودية ١٠٥
- خطوط رئيسة ١٠٧
- السّلع غير القابلة للنّقل ١٠٨
- شراء الأراضي ١١٠
- المَباني ١١١
- مَسَاكن العمال ١١٢

- العمال غير المهرة ١١٤
- العمل اليومي سبع ساعات ١١٥
- التخفيف بالعمل ١١٧
- التّجارة ١٢٠
- أنواع أخرى من المساكن ١٢١
- بعض أشكال من التصفية ١٢٢
- وهناك نموذج آخر أكبر ١٢٤
- ضَمَانات الشركة ١٢٥
- بعض أنشطة الشركة ١٢٨
- إنشاء الصناعات ١٣٠
- مُشتوطنات العمال المهرة ١٣٢
- أساليب الحصول على رأس المال ١٣٣

٣ـ المجموعات المحلية ١٣٩

- هجرتنا ١٤١
- الهجرة في جماعات ١٤٢
- كَهَنتنا ١٤٤
- مُمَثّلوا المجموعات المحلية ١٤٥
- تَخْطِيط المدن ١٤٧
- رحيل الطبقات الوسطى ١٤٧
- ظاهرة الجَمْهَرة ١٤٨
- نَسيجنا الإنسانيّ ١٥٤
- العَادات ١٥٦

٤ـ جمعية اليهود والدولة اليهودية ١٥٧

- إدارة العمل ١٥٩
- كفيل اليهود ١٦٣
- احتلال الأرض ١٦٥

- الدُّستور ١٦٨
- اللغة ١٧١
- حكومة ثيوقراطية ١٧٢
- القوانين ١٧٢
- الجيش ١٧٣
- العَلَم ١٧٣
- مُعَاهدات تَبادل الامتيازات وتَسليم المجرمين ١٧٣
- مَنَافع هجرة اليهود ١٧٥
خاتمة ١٧٩
المصادر والمراجع ١٨٧
- أولًا : مصادر ومراجع باللغة العربية ١٨٧
- ثانيًا : مراجع باللغة الإنجليزية ١٨٧
الكشاف ١٨٩

* * *

ثيودور هرتسل

- عاش ٤٤ عامًا (من ١٨٦٠ - ١٩٠٤)

- نمساوي ولد في « بودابست بالـمَجَر » ، ودرس في « فيينا » حتى عام ١٨٨٤ .

- عمل في المجالات السياسية والأدبية منذ عام ١٨٨٥ .

- عمل مُراسلًا صحفيًا في باريس « للجريدة الحرة الجديدة » التي كانت تصدر في « فيينا » من ١٨٩١ - ١٨٩٥ .

- أصدر مسرحيته « الجيتو الجديد » في نوفمبر ١٨٩٤ وهي تتحدث عن الأوضاع الاجتماعية لأغنياء اليهود في فيينا وعبَّر فيها عن توجهاته في المسألة اليهودية .

- كتب خلال شهريْ يونيه ويوليه ١٨٩٥ المُسَوَّدة الأولى من كتابه « الدولة اليهودية » ونَشَره عام ١٨٩٦ ، واستثمر في كتابته مواهبه الذهنية وخبراته الصحفية والقانونية ، وكان حينئذ في الخامسة والثلاثين من عمره .

- بَلْوَرَ في كتابه كل الأفكار السابقة عليه عن الصهيونية والوطن القومي لليهود ، وَحَدَّد الأهداف والوسائل لتنفيذها .

- نَجَحَ في عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل بسويسرا (٢٩ - ٣١ أغسطس ١٨٩٧) ، وشهد بعده خمس مؤتمرات صهيونية أخرى .

- توفي في ١٣ / ٧ / ١٩٠٤ ودُفِنَ في « فيينا » ، ثم نقلت رفاته قرب مدينة القدس عام ١٩٤٩ .

* * *

تعريف بالمترجم

محمد يوسف عدس

– مُفكِّر وكاتب موسوعي جمع بين الفلسفة والمكتبات والمعلومات والاقتصاد الإسلاميّ وتاريخ الأقليات الإسلامية في العالم .

– ولد بقرية بهوت بالدقهلية (مصر) عام ١٩٣٤ ، ولهذه القرية تاريخ في الثورة على الإقطاع .

– تعلَّم في بهوت والمنصورة وتخرّج في قسم الفلسفة بآداب القاهرة عام ١٩٥٧ .

– كان من أوائل من عملوا أمناء مُتخصِّصين للمكتبات المدرسية وبدأ عمله عام ١٩٥٨ بطوخ الثانوية وكان رائدًا لحركة ثقافية مُهِمَّة في هذا المجتمع في الستينيات .

– عمل مديرًا للمركز الثقافيّ المصريّ في الفلبين من ١٩٦٤ – ١٩٦٥ ، ثم موجِّهًا للمكتبات المدرسية في محافظة القليوبية ، وأنشأ أول مكتبة سمعية في مصر وعدّة مكتبات للأطفال ، واهتم بالدراسة التحليلية لأدب الأطفال .

– هاجر إلى أستراليا عام ١٩٧١ ، وعمل خبيرا بالمكتبات في جامعة بندجو بفكتوريا من ١٩٧١ – ١٩٧٤ ، وبالمكتبة القومية الأسترالية ، وأسهم في إصدار الببليوجرافيا الوطنية الأسترالية .

– انتقل إلى قطر عام ١٩٨٠ خبيرًا لمنظمة اليونسكو لإنشاء مكتبات جامعة قطر ، وأَدْخَل بها خدمات قواعد المعلومات (قبل ظُهور الإنترنت) .

– له العديد من الدراسات في علم المكتبات وتكنولوجيا المعلومات ، وله تقارير ميدانية عن المكتبات في سلطنة عمان واليمن (الجنوبية) والأردن ومصر .

– عاد إلى مصر في ١٩٩٥ وتفرّغ للبحث والكتابة عن قضايا الاقتصاد الإسلاميّ والأقليات المسْلِمة في العالم والظلم الإمبريالي للشعوب الفقيرة في العالم الثالث ، وكَشَفَ الأَقنعة عن منظمات دولية تتستر خلف شعارات التنمية مثل البنك الدوليّ

وصندوق النقد الدوليّ ومنظمة التجارة العالمية ، وكشف عن التطهير العِرْقِيّ في البوسنة وكوسوفا ومشكلات المسلمين في مقدونيا والفلبين والشيشان وآسيا الوسطى ، وله دراسة مبكرة عن مُسْلمي الفلبين وتاريخهم ومشكلاتهم (بعنوان : الفلبين - دار المعارف ، ١٩٦٩) .

- تَرْجم أعمالًا عالمية إلى العربية ، ومن أهمها : الإسلام بين الشرق والغرب ، والإعلان الإسلاميّ ، وكلاهما لعليّ عزت بيجوفيتش ، ومختارات من الأدب الفلبيني وغيرها مما يُترجَم لأول مرة .

كَتَب عن شخصيات مؤثرة في العالم إيجابًا وسلبًا ، منها : عليّ عزت بيجوفيتش ، جورج جالاوي ، ديك تشيني .

- بَلَغت كُتبه المؤلفة والمترجمة أكثر من ١٢ كتابًا ، وعشرات المقالات والأبحاث المنشورة في الصحف والمجلات العربية .

* * *

تعريف بالمراجع وكاتب الدراسة

أ.د عادل حسن غنيم

– ولد في مارس ١٩٣٤ في قرية نشا مركز طلخا بمحافظة الدقهلية بمصر .

– تخرّج في قسم التاريخ ـ آداب القاهرة عام ١٩٥٨م ومنها حَصَل على دَرَجَتَيْ الماجستير والدكتوراه في موضوع الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧م حتى الحرب العالمية الثانية .

– نَشَرَ أول كتاب له عام ١٩٦٠م بعنوان تطور الحركة الوطنية في العراق .

– من أوائل الباحثين العرب الذين اهتموا بدراسة التاريخ الفلسطينيّ الحديث والمعاصر ، حيث أمضى أكثر من أربعين عامًا باحثًا ومَحاضرًا ومناقشًا .

– كَوَّنَ مدرسة علمية من الباحثين في تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر .

– قدّم للمكتبة العربية أربعين بحثًا علميًّا معظمها عن القضية الفلسطينية وعن دول عربية متعددة . كما أَصْدَر خمسة عشر كتابًا مُعْظَمها عن تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر ، وعن العراق وقطر .

– شارك في مؤتمرات علمية بالعراق ، والمملكة الأردنية الهاشمية ، ومملكة البحرين ، ودولة قطر ، ومصر ، والنمسا ، وانجلترا . كما شارك في ترقيات أعضاء هيئة التدريس بجامعات القاهرة وجنوب الوادي ، واليرموك بالمملكة الأردنية الهاشمية ، والبحرين .

كان عضوًا في اللجنة العسكرية المنبثقة من لجنة تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م .

كان رئيسًا لقسم التاريخ بجامعة قطر خلال العام الجامعي ١٩٩٦ / ١٩٩٧ م ، كما رَأَسَ وحدة بحوث التاريخ والوثائق بمركز الوثائق والدراسات الإنسانية بالجامعة نفسِها .

– تولى رئاسة شعبة الدراسات التاريخية بمركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٩م . ويتولّى حاليًّا رئاسة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

– صدر كتاب تذكاري تكريمًا له بمناسبة بلوغه سن السبعين ، وبه دراسات تاريخية وببليوجرافية قيمة .

تقديم
الطبعة العربية الثالثة

يَسُرني أن أقدم إلى القارئ العربي الطبعة الثالثة من هذا الكتاب المُهم « الدولة اليهودية » لثيودور هرتسل مؤسس الحركة الصهيونية ، وقد سبق أن صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٩٤ م ، وصدرت الطبعة الثانية عام ٢٠٠٦ م ، ولاقت الطبعتان اهتمامًا كبيرًا من الدوائر الثقافية في مصر والعالم العربي ومن القارئ العربي ، مما دعانا إلى إصدار هذه الطبعة الجديدة .

ومنذ صدور الطبعة الثانية حدثت خلال السنوات الأخيرة تطورات مُهِمَّة بالنسبة للقضية الفلسطينية نتج عنها أوضاع جديدة على المستويات الفلسطينية والعربية والدولية نشير إلها في عبارات موجزة ومركزة :

أولًا : أن العدوان الإسرائيلي الأخير على غزة (ديسمبر ٢٠٠٨ - يناير ٢٠٠٩) عدوان بربري وهمجيّ غادر أعتبره استمرارًا لاجتياح المغول المشرقَ العربيَّ في عهد هولاكو خلال القرن الثالث عشر الميلادي ، وإنزال الدمار بهذه المنطقة ، كما أنه استمرار لعدوان النازي على اليهود خلال الحرب العالمية الثانية ، واستمرار في الوقت نفسه لمذابح الصهاينة في فلسطين منذ مذبحة دير ياسين وحتى الآن ، لكنهم في العدوان الأخير تجاوزوا كل الخطوط الحمراء ، واستخدموا كل الأسلحة والذخائر بما فيها المحظور دوليًا ،ولم يفرقوا بين طفل وشيخ وامرأة ، كما أنهم هدموا آلاف البيوت ، ودمروا المساجد والمقابر والمدارس بما فيها التابعة للأمم المتحدة ، وهاجموا قطاع غزة جوًا وبرًا وبحرًا في سابقة ربما لم تحدث في تاريخ البشرية ، ورغم كل هذا الدمار فإن الكيان الصهيوني لم يحقق أهدافه المعلنة من الغزو فلا هو قَضى على المقاومة ، ولا هو دَمَّر منصات إطلاق الصواريخ ، ولا هو استرد الجندي المخطوف ، بل على العكس من ذلك صمدت المقاومة وقاتلت بشراسة ، ولم تسمح للدبابات بالتوغل ، بل إن أهل غزة من الرجال والنساء والشباب رغم ما حلّ بهم من دمار وخسائر في الأرواح والممتلكات

ظلت معنوياتهم مرتفعة وكانت تعليقاتهم وكلماتهم تؤكد الثبات في مواقعهم المُهَدَّمة وعدم ترك الأرض ، التي وُلدوا فيها وعاشوا فوق ترابها ، بل إني لم أسمع تعليقًا واحدًا من أحد أبناء غزة يحمل معنى التراجع أو التردد أو الهزيمة ، مما جعل جزءًا كبيرًا من الرأي العام العالمي يتعاطف معهم ، ورغم الخسائر الفادحة التي حدثت بقطاع غزة والتي قدّرها الخبراء بعدَّة مليارات فضلًا عن الخسائر البشرية التي لا تُعَوَّض ، فإني أعتقد أن الخاسر الأكبر هو الكيان الصهيوني الذي خسر بهذا العدوان مستقبله في هذه المنطقة ؛ لأن هذا العدوان غير المسبوق سوف يترك لدى العرب والمسلمين ، خاصة أهل قطاع غزة ، وبشكل أخص شبابها وأطفالها الذين لن تغادر مخيلتهم هذه البربرية الصهيونية ، وسيشبون على كراهيتها وبغضها وعدم الاستعداد للتطبيع معها تحت أي ظرف من الظروف إلى أن يجدوا أنفسهم قادرين على مقاومتها والتصدي لعدوانيتها ، وباختصار فإن هذا العدوان البربري على غزة سوف يكون بداية النهاية لهذا الكيان الاستيطاني والعنصري البغيض .

ثانيًا : يعتبر الوضع الفلسطيني الراهن من أسوأ المراحل في تاريخ الشعب الفلسطيني منذ الحرب العالمية الأولى حتى الآن ، فرغم الخلافات الفلسطينية الدائمة بين القيادات السياسية كان هناك هيئات تجمع الشعب الفلسطيني : الجمعيات الإسلامية المسيحية في العشرينيات ، واللجنة العربية العليا في الثلاثينيات ، والهيئة العربية العليا في الأربعينيات ، ثم منظمة التحرير الفلسطينية منذ الستينيات .. لكننا نجد الآن قوتين منفصلتين ومُتعارضتين ومُتقاتلتين وهما : « حماس » التي تسيطر على قطاع غزة ، و « فتح » التي تُسيطر على الضفة الغربية تحت قيادة محمود عباس الذي يتولى في الوقت الحالي رئاسة الشعب الفلسطيني .

وفي تقديرنا أن محمود عباس لا يتحمل مسئولياته على الوجه الأكمل ، ويكفي عدم عمله بشكل فعال على توحيد الشعب الفلسطيني كهدف أسمى ينبغي النضالُ من أجله ، وعدم ارتفاعه فوق الصراعات الفلسطينية المختلفة ، وعدم اتخاذه إجراءات فعالة تدعم الوحدة الوطنية في فلسطين ، وعدم ردّه على ما اتهمته به صحيفة « معاريف » الإسرائيلية من وجود تسجيلات مصورة يطلب فيها استمرار الحرب الإسرائيلية على غزة ، وشريط

صوتي آخر بين الطبيب عبد الرحيم الأمين العام للرئاسة ومسئول إسرائيلي خلال الحرب على غزة يطلب فيها الطبيب عبد الرحيم إنهاء « حركة حماس » في قطاع غزة وإجبارها على الاستسلام ، إضافة إلى موقفه الأخير بشأن تأجيل مناقشة « تقرير جولدستون » أمام اللجنة الدولية لحقوق الإنسان . ورغم ذلك فإن محمود عباس يلقى دعمًا عربيًا رسميًا من معظم الدول العربية ومن الجامعة العربية باعتباره رجلًا مُعتدلًا ورئيسًا مقبولًا من الولايات المتحدة الأمريكية ومِن إسرائيل ومهندس « اتفاق أوسلو » وشخصية مرنة متفاهمة رغم كونه رئيسًا منتهية ولايته منذ ٩ يناير ٢٠٠٩ ، وليس من حقه مُمارسة سلطاته .

وأما بالنسبة لتوحيد الجهود الوطنية ، فرغم الجولات العديدة التي عقدتها القاهرة من أجل الحوار الوطني وتحقيق المصالحة بين « فتح » و « حماس » لم يتم التوقيع حتى تاريخه من جانب « حماس » على الاتفاق المطلوب رغم توقيع « فتح » بشكل منفرد ، لكن الأهم من التوقيع هو التوافق الوطني على نبذ الاختلاف والتَرَفُّع عن الصغائر ، واحترام روح الاتفاق قبل نُصوصه ، ومُواجهة إسرائيل من مُنْطلق وطني صُلْب ؛ لأن استمرار هذا الخلاف والصراع - بِغَضِّ النظر عن أسبابه - يَصُبُّ في مصلحة إسرائيل وحدها .

ثالثًا : إنّ مخططات إسرائيل قائمة ومستمرة لتهويد المدينة المُقَدّسة والتطهير العرقي لسكانها العرب وهَدْم المسجد الأقصى أو اقتحامه بحجة تنظيم الشعائر فيه . وإضافةً إلى عمليات الحَفْر المتواصلة أسفل المسجد الأقصى بما يُهَدِّد أَساسه تقوم جماعات صهيونية متطرفة في المرحلة الأخيرة - وسط هتافاتهم وصيحاتهم - باحتفالات صاخبة مُلاصقة للجدار الجنوبي للمسجد الأقصى حيث يتم عرض صُور على حائط المسجد الأقصى للهيكل المزعوم إقامته مكان المسجد الأقصى ، كما يحاول متطرفوهم بين وقت وآخر اقتحام ساحات المسجد الأقصى المبارك يتقدّمهم عدد من الحاخامات تحت سَمْع وبَصَر الشرطة الإسرائيلية .

وأغلب الظن أن الصهاينة سوف يتمكنون خلال المرحلة القادمة من عمل شيء ما تجاه المسجد الأقصى سواء بِتَصَدُّع بعض جدرانه ، أو محاولتهم أداء الصلوات فيه بشكل أكثر انتظامًا أو استمرار السيطرة الأمنية على المسجد الأقصى في أية تسوية قادمة .

لقد كاد ينتهي عام القدس كعاصمة للثقافة العربية دون أن تحاول الأمة العربية الاستفادة من هذه المناسبة لتعبئة قوى الأمة من أجل دعم صمود القدس والحفاظ على هويتها العربية والإسلامية ، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه مما تبذله الصهيونية وإسرائيل بهدف الإسراع في تهويد المدينة المقدسة واستكمال مخطط التطهير العرقي لسكانها العرب . وسوف يكتب التاريخ على هذه الأمة المعاصرة تَقْصيرها في الدفاع عن القدس والتهاون في الحفاظ على عروبتها .

رابعًا : أننا كعرب لا نُحْسن الاستفادة من الوثائق والتقارير التي تدعم قضايانا . فرغم اعتماد الأمم المتحدة « لتقرير جولدستون » ومطالبتها بتحقيقات ذات مصداقية في جرائم الحرب في غزة ، وأن يقوم الأمين العام للأمم المتحدة بتقديم تقرير خلال ثلاثة أشهر لبحث اتخاذ إجراءات أخرى ، إلا أننا كعرب – وبخاصة السلطة الفلسطينية – لم نُحسن استثماره قانونيًا أو إعلاميًا .

ولعل ما حَدث مع هذا التقرير يُوضّح بجلاء مدى ما وصل إليه الموقف الدولي من ضعف وتناقض ، وهو موقف ليس بجديد ، فقد سبق للقاضي الشجاع « جولدستون » أن وَجَّه هجومًا شديدًا لقيادات حلف الأطلنطي في « البوسنة » بسبب تراخيهم في القبض على المتهمين بجرائم الحرب والمذابح التي جرت في « البوسنة » ، وهو الموقف نفسُه الذي يتكرر الآن بعدم الاستفادة الجيِّدة من تقرير جولدستون فيما يتعلق بجرائم الحرب في غزة .

خامسًا : أن عملية إطلاق بعض الفصائل الفلسطينية للصواريخ وقذائف الهاون من قطاع غزة على مناطق تخضع للسيطرة الإسرائيلية ما يزال مستمرًا دون إحداث إصابات أو أخطار تذكر على الأغلب ، ويترتب عليها بطبيعة الحال مزيد من الغارات الجوية الإسرائيلية والخسائر في الأرواح والممتلكات في قطاع غزة .

ولا شك أن إطلاق تلك الصواريخ في وقت أعلنت فيه « حركة حماس » أنها توصلت إلى توافق بين الفصائل الفلسطينية على عَدَم إطلاق الصواريخ من قطاع غزة في الظروف الراهنة يوضح أن تلك الفصائل إما أنها لم تتوصل إلى توافق أو أنها لا تحترم ما

توصلت إليه من اتفاقات أو أنها جاهلة بأهمية التوقيت في حياة الحركات الثورية .

وأعتقد أننا لو شُغِلنا بتقوية تلك الصواريخ وزيادة مَداها حتى يأتي الوقت المناسب لاستخدامها يكون ذلك أكثر تأثيرًا من إطلاق بعض الصواريخ التي لا تترك أثرًا ولا تحقق فائدة ، فمتى نخطط لزيادة فعالياتنا وتطوير قوتنا قبل أن نتحرك دون هدف محسوب .

سادسًا : تتجه غالبية الدول العربية نحو تسوية المشكلة الفلسطينية وإقامة الدولة الفلسطينية المرتقبة في إطار مباحثات سلام بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل على قاعدة الأمن مُقابل السلام وطبقًا للمبادرة العربية للسلام .

ورغم أنه ليس هناك معاهدات رسمية مع إسرائيل سوى مع مصر والمملكة الأردنية الهاشمية ، لكن معظم البلاد العربية تتعامل مع إسرائيل بشكل أو بآخر ، ويفتح بعضها مكاتب اقتصادية لإسرائيل في عواصمه ، ويَسْمح الكثير منها للبضائع الاقتصادية بدخول أسواقه ، ويتبادل بعض قيادتها المودة مع إسرائيل في المؤتمرات الدولية ، بل إن أحدهم له قصر في تل أبيب على ضفاف البحر الأبيض المتوسط .

وتنقسم الدول العربية في الوقت الراهن إلى دول مُتشابهة الفكر وأخرى متعارضة الفكر وثالثة مختلفة الفكر . بل إن بعضهم يُعلن ذلك صراحة ، ففي اجتماع عُقد في أبو ظبي أوائل فبراير الماضي أعلن أن اجتماعًا تشاوريًا عقد لمجموعة الدول العربية متشابهة الفكر (مصر والمملكة العربية السعودية ودولة الإمارات والمملكة الأردنية الهاشمية والسلطة الفلسطينية بحضور وزراء الخارجية والإعلام في تلك الدول) .

كما أن انشغال الدول العربية بصراعاتها الداخلية وخلافاتها مع بعضها البعض ، والحرص على أنظمة الحكم القائمة أكثر من حرصها على مواجهة مشكلاتها الحقيقية ، كل ذلك يُؤَثِّر دون شك في القيام بمسئولياتها تجاه الشعب الفلسطيني وقضيته الوطنية .

سابعًا : أن الجامعة العربية تأخذ مواقف قوية من الصراع العربي الإسرائيلي من الناحية النظرية مثل مُطالبتها مجلس الأمن والرباعية الدولية بالتدخل الفوري لمنع تهويد القدس الشرقية أو تكليف المجموعة العربية في نيويورك بالعمل على استصدار قرار من الجمعية

العامة بتكليف محكمة العدل الدولية للنظر في الانتهاكات الإسرائيلية في القُدس الشرقية ، ومثل قرارها بتشكيل لجنة قانونية لتحضير ملف الدعوى أمام محكمة العدل الدولية بشأن انتهاكات إسرائيل في القدس ، ومثل قرار مجلس الوزراء العرب تكليف الأمين العام للجامعة العربية بتشكيل فريق من الخبراء القانونيين لطرح موضوع جرائم إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني أمام القضاء الدولي والوطني لمُلاحقة الإسرائيليين المتهمين بارتكاب جرائم حرب ضد الإنسانية وجرائم إبادة جماعية .

لكن الجامعة العربية بسبب ضَعْف مواقف الدول العربية وتَعدُّد خلافاتها لا تتابع تنفيذ تلك القرارات على الوجه الأكمل ، فالجامعة العربية في النهاية تعبير صادق على أوضاع الدول العربية وتَنَاقُض مَوقفها .

ثامنًا : أن الحكومة الإسرائيلية الحالية والتي يرأسُها « نيتينياهو » تعتبر أكثر الحكومات عُنصرية في تاريخ إسرائيل ، فمنذ حصولها على ثقة الكنيست في آخر مارس ٢٠٠٩ م وهي تتبنى خطوطا سياسية من أهم ركائزها المحافظة على الطابع اليهودي للدولة والتقاليد اليهودية ، وعدم احترام ديانات وتقاليد الجاليات العرقية في البلاد ، أي أنها لم تطالب فقط عرب فلسطين بالاعتراف بيهودية الدولة ، لكنها اعتبرتهم – وهم أصحاب البلاد الأصليون – مجرد جالية .

وهناك مظاهر عديدة تؤكد تزايد العنصرية الصهيونية المتطرفة ، منها التصديق على مشروع قانون يحظر تشغيل العمال الفلسطينيين المقيمين في إسرائيل ، ومنها تزايد القيود ضد العرب المقيمين في إسرائيل ، ومنها : إعلان إسرائيل عدم التعاون مع لجنة التحقيق التابعة للأمم المتحدة بالنسبة لجرائم الحرب الإسرائيلية في غزة خلال عملية الرصاص المصبوب ، ومنها : أنها ستلغي الأسماء العربية للمدن والقرى العربية في إسرائيل بهدف الإبقاء على الاسم العبري وَحْده .

ومنها الإصرار على الاعتراف الفلسطيني بيهودية الدولة قبل إبرام أي اتفاق سلام مع العرب .

أما بالنسبة لما يعرض بين وقت وآخر من مشروعات مقدَّمة من « بيريز » رئيس الدولة و « إيهود باراك » وزير الدفاع أو من الوزير « شاءول موفاز » أو من غيرهم فالهدف منها إضاعة الوقت وإشغالنا بمشروعات مرحلية .

ولا شك أن موقف الحكومة الإسرائيلية الرافض للوقف الكامل للاستيطان وعودة اللاجئين إلى ديارهم والتمسُّك بالقدس عاصمة أبدية لإسرائيل وحدها سوف يقف عثرة أمام أي مفاوضات للتسوية السلمية . ولعل ذلك يؤكد ما سبق أن قلناه مرارًا من أن إسرائيل لا تُريد السلام ، لكنها تُماطل حتى الوقت المناسب الذي تتمكن فيه من فرض الواقع على الدولة الفلسطينية المرجوة .

كما أن هذه الحكومة أكثر الحكومات الإسرائيلية تجاهلًا لالتزامات السلام ، فبين وقت وآخر تَصْدر تصريحات من وزير الخارجية الإسرائيلية « ليبرمان » يعلن فيها تَنَصُّل إسرائيل من « اتفاقات أنابوليس للسلام » أو أنه لا يتوقع خلال السنوات القليلة القادمة توصلًا إلى سلام شامل مع عرب فلسطين ، أو أنه لن يتم التوصل إلى حل للنزاع مع الفلسطينيين دون تسوية للبرنامج النووي الإيراني .

تاسعًا : أن عمليات الاستيطان رغم استمرارها قائمة على قدم وساق طوال السنوات السابقة سواء في القُدس أو الضفة الغربية ، وإن كانت عمليات الاستيطان والتهويد والمصادرة في القدس وما حولها أكثر ضراوة وأشد تأثيرًا . وقد أخذت السلطة الفلسطينية موقفًا من عملية الاستيطان دَعت إلى وقف شامل للاستيطان وتنفيذ التزامات إسرائيل الواردة في خريطة الطريق قبل الدخول في مفاوضات التسوية النهائية ، والالتزام عند استئناف المفاوضات بما توصل إليه الطرفان عند توقف المفاوضات في ديسمبر ٢٠٠٨ م . لكن إسرائيل مَاطَلت كعادتها من أجل فرض أمر واقع عند المفاوضات ، لكنها أمام ضغوط الولايات المتحدة الأمريكية غير الحاسمة ورُدود فعل المجتمع الدولي أعلنت مؤخرًا عن تجميد مؤقت لمدة عشرة أشهر لا يشمل القدس مع استمرار في بناء ثلاثة آلاف من الوحدات الاستيطانية في الضفة الغربية ، لكن السلطة الفلسطينية رَفَضَت هذا الحل الجزئي ، وإن كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد رَحَّبت به بدعوى أنه يُسهم في

إحراز تقدم في عملية السلام ، ومن ناحية أخرى هناك قوى أخرى في المجتمع الإسرائيلي تصدر منها تصريحات مختلفة ومتناقضة مثل إدارة التنظيم في بلدية القدس ومجلس المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية حيث يرفض كل منهما قرار مجلس الوزراء بالإيقاف المؤقت للاستيطان ويقرران مواصلة عملية البناء في المستوطنات سواء مع الحكومة أو من دونها ، ومن المؤكد أن إسرائيل تنفذ من مشروعات الاستيطان أكثر مما تُعلن عنه ، وأنها على الأغلب لن تلتزم بما أعلنت عنه من تجميد مؤقت للاستيطان لمدة عشرة أشهر .

عاشرًا : أما عن موقف الحكومة الأمريكية ، فرغم التصريحات الرسمية التي تُوحي بأسلوب جديد في التعامل مع قضايا السلام في الشرق الأوسط والتزامه بإقامة دولتين : دولة إسرائيلية وأخرى فلسطينية ، إلا أن السياسة الأمريكية حتى الآن لا تُبَشّر من الناحية العملية بأية تغييرات إيجابية تذكر باستثناء محاولات مبعوثيها المكوكية من أجل استئناف مباحثات السلام ، والتصريح بين وقت وآخر على لسان ممثليها بأن استمرار إسرائيل في عمليات الاستيطان يحبط جهود السلام ، وهو موقف أمريكي ضعيف لا ينبئ بالخير ولا يدعو إلى الاطمئنان ، ويشجع إسرائيل على التمادي في مماطلاتها وتهويديها لمزيد من المناطق .

كما أن الموقف الأمريكي المُعْلَن برفض إجراء أي اتصالات مع حركة حماس قبل الاعتراف بالشروط الأمريكية الثلاث : نبذ العنف ، والاعتراف بحق إسرائيل في الوجود ، والالتزام بالاتفاقات السابقة سوف يصطدم في النهاية بمواقف « حماس » المبدئية الرافضة للاتفاقات السابقة أو الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود دون اعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة مثل عودة اللاجئين .

يُضاف إلى ذلك سيطرة السياسة الأمريكية على توجيهات مجلس الأمن ، واستخدام « الفيتو » في الوقت المناسب لإجهاض أية قرارات لصالح عرب فلسطين باستثناء البيانات غير الملزمة مثل التوصل إلى حل عادل ودائم في الشرق الأوسط يقوم على حل الدولتين الفلسطينية والإسرائيلية .

وفي الختام أُؤكد ما سبق أن ذكرته في الطبعة الأولى من أن الهدف من ترجمة هذا الكتاب هو التعريف بالمخططات الصهيونية وتبيان أسباب نجاحها في تحقيق أهدافها ولُجوء رُوَّادها إلى التفكير المُنَظَّم والتخطيط الواعي ، واستماتتهم من أجل تحويل الأفكار النظرية إلى واقع عملي .

وإذا كانت الحركة الصهيونية التي تفتقر إلى الحق والعدل في إقامة الدولة قد نجحت في النهاية في تحقيق هدفها في ظروف محلية وعربية وعالمية مواتية ، فهل تعجز الأمة العربية أن تُخرج مفكرًا يكتب لأمته عن الدولة الفلسطينية المرتقبة ، وتقوم أجيال قادمة بالعمل على تحقيق هذا الهدف . وبالله التوفيق ومنه وحده العون والسداد .

عادل حسن غنيم

المقطم ، في ديسمبر ٢٠٠٩م

تقديم الطبعة العربية الثانية

صَدَرت الطبعة الأُولى من هذه الترجمة العربية لكتاب « الدولة اليهودية » عام ١٩٩٤م أي منذ أحد عشر عامًا ، ونَفَدَت نُسَخُ الكتاب منذ ثلاث سنوات ، ولم تَسْمح الظروف بإعادة طبع الكتاب في حينه لعدد من الأسباب أهمها : انشغالي والمُتَرْجم الأستاذ محمد يوسف عدس بعد العَوْدة من قطر إلى مصر بأُمور علمية وثقافية متعدّدة ، ثم إلى وفاة الناشر المرحوم أَحمد كمال وتوقُّف أسرته عن متابعة نشاطه .

وقد لاقى الكتاب عند صُدوره ترحيبًا كبيرًا من الدوائر العلمية والثقافية في مصر والعالم العربيّ باعتباره إحدى الوَثَائق المهمَّة الخاصة بالصِّراع العربيّ الإسرائيليّ ، وكَتَبَتْ صُحُف ومجلات عديدة على رأسها الأهرام والجمهورية والأهالي المصرية ، والرَّاية والشرق القطريتان وصُحف عربية أُخرى تعليقات مختلفة حول الكتاب ، كما كتبت مقالات مختلفة عن الكتاب من أهمّها ما كتبه الكاتب أحمد بهجت والكاتب أحمد الجمال والكاتب التونسي عمار الطالبي الذي حقَّق شرح ابن رشد لألفية ابن سينا في الطِّب ، كما قام الدكتور محمد بيومي أُستاذ علم الاجتماع بجامعة الإسكندرية بإعداد دراسة قيّمة عن الكتاب .

ومنذ صُدور الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٩٤ م حدثت أحداث كبرى سواء على المستوى الفلسطيني أو العربي أو الدولي ، كان أهمها ولا شك على المستوى الفلسطيني هو حُدوث انتفاضة الأقصى منذ اقتحام شارون ساحة المسجد الأقصى في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م والتي كان سببها الأساسي يرجع إلى فشل مفاوضات الوَضْع النهائيّ التي تَمَّت بين الرئيس عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيليّ باراك في يوليو ٢٠٠٠ والتي لم يُقَدَّر لها النجاح بسبب عدم استجابتها للحدّ الأدنى من مَطَالب عرب فلسطين مما حدا بعرفات إلى رفض التَّسوية رغم الضغوط الهائلة التي مَارَسَتها الولايات المتحدة الأمريكية عليه .

ولاشك أنَّ هدف انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠م كان تحقيق الهدف المَرْحلي للنضال الفلسطينيّ الذي يتمثَّل في إقامة الدولة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة

وعاصمتها القدس .

وقد استمرت انتفاضة الأقصى (٢٠٠٠م) أكثر من أربع سنوات مُواصِلةً نضالها رَافعةً أعلامها دون تَوَقُّف رغم ما تعرَّض له عرب فلسطين من خسائر بشرية ومادية فادحة ، وتدمير البنية الأساسية ، وتوقف معظم المؤسسات التجارية والصناعية ، وارتفاع نسبة البطالة لتشمل غالبية الفلسطينيين ، وتجريف عشرات الآلاف من أشجار الزيتون ، وتسوية مئات المنازل والمؤسسات بالأرض ، ورَدْم عشرات من آبار المياه ، وإغلاق المدن والطرق الرئيسية ، وتصفية واغتيال كوادر الفصائل الفلسطينية وكثير من قياداتها ، واستخدام الدبابات والمدافع والصواريخ والطائرات العسكرية المقاتلة ، إضافة إلى آلاف الشهداء والجرحى .

فحتى آخر فبراير ٢٠٠٥ ومنذ بدء انتفاضة الأقصى في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م وطِبْقًا لبيانات مركز المعلومات الوطنيّ الفلسطينيّ بلغ عدد شهداء الانتفاضة (٤٠٩١) شهيدًا وعدد الجرحى (٤٤٥٠٠) جريحٍ بخلاف آلاف الجرحى الذين عُولِجُوا في مواقعهم .

ولم يكن الموقف العربيّ أو الدوليّ خلال انتفاضة الأقصى يسير إلى جانب القضية الفلسطينية أو يدعمها بقوة ، ويرجع ذلك إلى عدد من الأسباب من أهمها بالنسبة للموقف العربيّ عدم وجود استراتيجيات لمواجهة إسرائيل وضعف الدول العربية عسكريًّا وتكنولوجيًّا بالنسبة لإسرائيل ، كما أن كثيرًا من دولهم خضعت بشكل أو بآخر للولايات المتحدة الأمريكية التي حرصت على جعل إسرائيل قادرة على التصدي للدول العربية مجتمعة ، ومَارَست ضغوطها على تلك الدول كي تدفعها إما إلى توقيع اتفاقات مُنفردة معها أو تطبيع علاقاتها معها بشكلٍ أو آخر ، وحتى بعد قرارات إيقاف التطبيع مع إسرائيل لحين اعترافها بالحقوق العربية ظَلّ عدد غير قليل من البلاد العربية يتعامل اقتصاديًّا مع إسرائيل ، بل إنه لُوحظ خلال السنوات الأخيرة ارتفاع حجم صادرات إسرائيل ووارداتها مع البلاد العربية .

وفيما يتعلَّق بصندوق دعم الانتفاضة الذي سبق أن قرر مؤتمر القمة العربية تدعيمه

بمليار دولار ذكر محمد صبيح مُمَثِّل فلسطين في الجامعة العربية أن المبلغ خَفَّضته الدول العربية ٣٠ % فأصبح ٦٩٣ مليون جنيه لم تُدْفَعْ جميعها في الوقت المناسب .

وأما بالنسبة للدَّعم الشعبيّ العربيّ فإنه رغم زيادته وتعدُّد مصادره لم يكن كافيًا طبقًا لما صرَّح به عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية خلال الانتفاضة .

وأما بالنسبة للموقف الدولي فإنه منذ انهيار الاتحاد السوفيتي في أوائل التسعينيات من القرن العشرين وبروز الولايات المتحدة الأمريكية كقطب أوحد أصبحت هي المتحكمة إلى حد كبير في السياسة العالمية مما أعطى لإسرائيل دعمًا استراتيجيًا بلا حُدود زاد من صَلَفِها وغَطْرستها وعدم احترامها لأية قرارات دولية .

وزادت الأُمور سُوءًا بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ المؤسفة والأليمة بالولايات المتحدة الأمريكية حيث أصبحت قضية الإرهاب الدولي القضية الأساسية على مستوى السياسة الخارجية الأمريكية ، واستخدمت الولايات المتحدة الأمريكية هذه القضية من أجل تخويف وترويع وتأديب من ترى من دول العالم أن تتهمه برعاية الإرهاب أو مُسَاندته .

واستثمرت إسرائيل قضية الإرهاب أفضل استثمار في فلسطين حيث اتهمت فَصَائل المقاومة المختلفة بالإرهاب ، ووجد ذلك استجابة من قيادة الولايات المتحدة الأمريكية التي طالبت السلطة الفلسطينية بتفكيك منظمات المقاومة باعتبارها منظمات إرهابية ، وأَدرجت منظمات حماس والجهاد الإسلاميّ والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وكتائب شهداء الأقصى ضمن قائمة المنظمات الإرهابية في العالم .

وَتَوالت التصريحات الأمريكية التي تتهم الرئيس عرفات صراحة بالإرهاب وتطالبه بالعمل على مُكَافحته ، مما أعطى إسرائيل ضوءًا أخضر بإعادة احتلال مناطق الحكم الذاتيّ وتصعيد إرهاب الدولة الإسرائيلية إلى درجة غير مسبوقة في تاريخ الإرهاب في العالم .

ومحاولةً للتجاوب مع هذا التَّوجه دَعَت السلطة الفلسطينية فصائل المقاومة لتثبيت وقف إطلاق النار ، واستجابت الفصائل الرئيسية لذلك حرصًا منها على إعطاء الفرصة

لجذب إسرائيل لإجراء التسوية السلمية ، لكن السلطة الإسرائيلية واصلت سياسة الحصار والتدمير والتصفية الجسدية للكوادر الفلسطينية ، مما اضطر السلطة الفلسطينية إلى أن تُعلن عدم التزامها بوقف إطلاق النار ، وتكرر السيناريو عدّة مرات في محاولات من السلطة الفلسطينية لتهدئة الأُمور واستجابت الفصائل الفلسطينية ، لكن إسرائيل كانت تتحيَّن الفرصة لاستئناف سياستها العدوانية مستفيدة من المناخ السَّائد في العالم وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية بضرورة مقاومة الإرهاب ، والخلط عمدًا بين المقاومة والإرهاب .

ورغم هذا الانحياز الأميركي السَّافر إلى إسرائيل ، وتركيز الولايات المتحدة الأميركية على قضية الإرهاب ، فقد نجحت الانتفاضة في جَعْل قضية النضال الفلسطينيّ ضد إسرائيل قضية رئيسية على مستوى العالم ، ويؤكِّد هذه الحقيقة قرار مجلس الأمن رقم ١٣٩٧ الصادر في ١٣ مارس ٢٠٠٢م والذي طرح فكرة إقامة دولتين « إسرائيل وفلسطين » ضمن حدود آمنة ومعترف بها ، وهي المرة الأولى منذ قرار التقسيم عام ١٩٤٧م التي يشير فيها قرار لمجلس الأمن إلى إقامة دولة فلسطينية .

ولقد حدث تطور مهمٌّ في مسار تسوية القضية الفلسطينية في ٨ مايو ٢٠٠٣م عندما قدمت اللجنة الرباعية المشكلة من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوربيّ وروسيا والأمم المتحدة خطّة عُرِفَتْ باسم خريطة الطريق ، وخلاصتها أن حل المشكلة يرتكز على وجود دولتين إحداهما للشعب الإسرائيليّ والثانية للشعب الفلسطيني وفقا للرؤية التي أعلن عنها الرئيس الأمريكي بوش في ٢٤ يونيه ٢٠٠٢م ، وتتضمَّن الخطة ثلاث مراحل زمنية وتنفيذية وأهدافًا لكل مرحلة من خلال خطوات متبادلة ومتزامنة يقوم بها الطرفان وتصل إلى ختامها عام ٢٠٠٥م ، ورغم ما في خريطة الطريق من قيود ، إلَّا أن السلطة الفلسطينية أعلنت عن قبولها دون تحفُّظ بهدف إنهاء الاحتلال الإسرائيلي وإقامة دولة فلسطينية ذات سيادة ، أما إسرائيل فقد قبلتها في إطار أربعة عشر تحفظًا عليها : منها تفكيك منظمات المقاومة ومقاومة العنف والإرهاب ، وتشكيل قيادة فلسطينية جديدة ، وتَنَازل السلطة الفلسطينية عن حقّ عودة اللاجئين إلى إسرائيل ، وأن تكون الدولة

الفلسطينية ذات حدود مؤقتة ومنزوعة السلاح ، وليس لها قوات مسلحة ، وأن تشرف إسرائيل على كل مداخل الدولة الفلسطينية ومخارجها للأشخاص والسلع والمجال الجوي والمياه الإقليمية .

ورغم رفض الولايات المتحدة الأمريكية للتحفظات الإسرائيلية في حينه ، إلا أنها تراجعت بعد أقل من عام عن رفضها ، فقبلتها جميعها ضمن خطاب الضمّانات الذي أعطاه بوش لشارون في ١٤ / ٤ / ٢٠٠٤م والذي أسميته « تصريح بلفور الثاني » نظرًا لأن تلك الضمانات تُذَكِّرنا بذلك التصريح الذي أصدرته الحكومة البريطانية في ٢ نوفمبر عام ١٩١٧م بشأن إنشاء وطن قوميّ للشعب اليهودي في فلسطين .

ولقد كان المُتَصَوَّر بعد التَّقدم الكبير الذي شهدته مبادئ حقوق الإنسان أن تَكُفَّ الدول الكبرى عن إعطاء مثل هذه العهود التي تُخَالف الشرعية الدولية وقرارات الأُمم المتحدة ومؤسساتها المختلفة ، لكن العالم فوجئ بالرئيس الأمريكيّ بوش يعطي لإسرائيل حقوقًا جديدة لا تستحقها مثل الاحتفاظ ببعض المستوطنات في الضفة الغربية ومثل حقّ اللاجئين في العودة فقط إلى دولتهم المنتظرة وليس إلى أراضيهم المحتلة منذ عام ١٩٤٨م .

ولم يكن من حقّ الرئيس الأمريكيّ إعطاء مثل هذه الوعود خاصة وأنها تُخالف قراريْ الجمعية العامة رقم (١٨١) لسنة ١٩٤٧م بشأن التَوْصِية بخطة تقسيم فلسطين ، ورقم (١٩٤) لسنة ١٩٤٨م بشأن تقرير حق اللاجئين في العودة إلى ديارهم وقَرَارَيْ مجلس الأمن رقم (٢٤٢) لسنة ١٩٦٧م بشأن إقرار مبادئ سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط ، و (٣٣٨) لسنة ١٩٧٣م بشأن طلب وقف إطلاق النار والدعوة إلى تنفيذ القرار رقم (٢٤٢) بكل أجزائه .

وقد شجَّعت تلك السياسة التي تَبَنَّاها الرئيس الأمريكيّ ضمن خطاب الضمانات الذي أبلغه لشارون في ١٤ / ٤ / ٢٠٠٤م إسرائيل على تصعيد سياستها العدوانية واجتياحها البربريّ لمناطق السلطة الفلسطينية ، وعَدَم الحِرْص على تَسْوية المشكلة والبَتّ في المسائل المُؤَجّل بحثها : وهي القدس واللاجئون والمستوطنات والحدود والمياه .

وحتى بالنسبة لموضوع عودة اللاجئين الفلسطينيين الذي هو حق مشروع لهم والذي كان قبول إسرائيل عضوًا في الأمم المتحدة في مايو ١٩٤٩م مرتبطًا بتنفيذها لتوصية التقسيم لعام ١٩٤٧م والقرار (١٩٤) الخاص باللاجئين والذي يقضي بالسّماح في أقرب وقت ممكن للاجئين الراغبين في العودة إلى ديارهم بأن يعودوا إليها ، وضرورة دَفْع تعويضات عن الممتلكات لمن يختارون عدم العودة وعن كل مفقود أو مصاب بضرر .

وهذا الموضوع حقٌّ غير قابل للتصرف رغم مُضيّ السنين طبقًا للقانون الدوليّ ، وليس من حق أيّ إنسان حتى ولو كان الرئيس الأمريكي أن يلغيه أو يجري عليه تعديلا حيث إن القرار يشمل فلسطين جميعها بما فيها دولة إسرائيل الحالية .

إن هذه الضّمانات من قِبل الرئيس الأمريكيّ تَعْني عدم مصداقية الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها الرّاعي الأول لعملية السلام في العالم خاصة وأن السلام الذي تُريده هو سلام على الطريقة الإسرائيلية .

وإذا كان الرئيس الأمريكي قد سمح لنفسه بهذه التجاوزات للشرعية الدولية وبشكل استفزازيّ صارخ لم يسبقه إليه أي رئيس أمريكيّ آخر رغم انحياز أكثرهم لصالح إسرائيل ، فإن من وَاجب الفلسطينيين والعرب والمسلمين أن يرفضوا تلك الضمانات ويُعْلِنوا تَمَسُّكهم بقرارات الشرعية الدولية ومقاومتهم لتنفيذ تلك الضمانات .

تلك في إيجاز أهم عناصر الموقف الدولي من القضية الفلسطينية خلال انتفاضة الأقصى (٢٠٠٠م) .

أما بالنسبة للمجموعة الأوربية فقد زادت من نَقْدها وشَجْبها للممارسات الإسرائيلية ، كما أن هناك أنشطة أوربية غير مسبوقة مثل اعتصام البريطانيين أمام مكتب رئيس الوزراء البريطانيّ ، لكن الدور الأوربيّ ما يزال حتى الآن مَحْدودًا وغير فَعّال ، ولا يُنْتَظَرُ منه القيام بدور مُؤَثّر خلال السنوات القادمة ، خاصة وأن إسرائيل ترفضه ، كما أن الولايات المتحدة الأمريكية تَغُضّ الطرف عنه .

أما بالنسبة للاهتمام الشعبيّ العالميّ بالقضية الفلسطينية خلال انتفاضة الأقصى فهناك

زيادة اهتمام ملحوظة نتيجة استمرار الانتفاضة وتَصَاعُدها رغم كل الممارسات الإسرائيلية ، وأستشهد على ذلك باجتماع منظمات حقوق الإنسان غير الحكومية الذي عُقِدَ بحضور ممثلي ٥٣ دولة في جنيف في ١٧ مارس ٢٠٠٢م وإصرار المجتمعين على تقديم شارون للمحاكمة بسبب الجرائم التي ارتكبها ضد عرب فلسطين ، وانتقاد تلك المنظمات لما أسمته بالمعايير المزدوجة في سلوك الدول الكبرى .

وتنطبق نفس الملاحظة على دول العالم الثالث حيث أصدر اجتماع وزراء خارجية دول عدم الانحياز قرارًا بمقاطعة البضائع والمنتجات الإسرائيلية ، ومنع المستعمرين الإسرائيليين من دخول أراضى دول عدم الانحياز .

ومنذ وفاة ياسر عرفات في ١١ نوفمبر ٢٠٠٤م وتولى محمود عباس (أبو مازن) رئاسة السلطة الفلسطينية في ١٥ يناير ٢٠٠٥م أخذت القضية الفلسطينية مسارًا جديدًا متجهًا إلى التهدئة وعقد هدنة مؤقتة تتوقف خلالها هجمات فصائل المقاومة على إسرائيل حتى يمكن انسحابها من مناطق الحكم الذاتيّ – التي أعادت احتلالها – تمهيدًا للدخول في مفاوضات لتسوية القضايا الرئيسية التي أُرْجِئَ التفاوض حولها بناءً على اتفاق أوسلو في ١٣ سبتمبر ١٩٩٣م إلى المرحلة النهائية التي نصَّ الاتفاق على بدئها فيما لا يجاوز بداية السنة الثالثة من الفترة الانتقالية ، وهو ما لم يحدث حتى الآن ، حيث توقَّفَتْ مفاوضات الفترة الانتقالية من فبراير ١٩٩٦م حتى آواخر ١٩٩٨م . وكان كل ما حصل عليه الفلسطينيون ثلث مساحة قطاع غزة وما لا يزيد عن ١٣ ٪ من مساحة الضفة الغربية .

خلال تلك السنوات عَمِلت إسرائيل بحكوماتها المختلفة على إنشاء العديد من المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس حتى بلغ عدد المستوطنين ٤٠٠ ألف مستوطن ، واقترب عدد المستوطنات من المائتيْ مستوطنة شغلت من مساحة الضفة الغربية ٤٢ ٪ بخلاف ما يشغله الجدار الأمنيّ من الضفة الغربية والذي بلغت مساحته ثمانين كيلو مترًا مربعًا ، بحيث لم يبق للدولة الفلسطينية من الضفة الغربية سوى مساحة تقلّ عن نصفها ، وهو ما سيشكل عند التفاوض حول قضايا التسوية النهائية عقبة كبرى ، حيث سيحاول الإسرائيليون فرض الأمر الواقع وتقليص الدولة الفلسطينية إلى أقل مساحة

ممكنة فضلا عن عدم تَوَحُّد أجزائها .

ورغم ما بذلته السلطة الفلسطينية من جهود جبارة من أجل عقد هدنة تتوقف خلالها أنشطة فصائل المقاومة ضد إسرائيل ورغم استجابة الفصائل الفلسطينية الرئيسية بشكل مبدئيّ للتهدئة والتزامها بها حتى قبل قمة شرم الشيخ التي عُقِدَتْ في أوائل فبراير ٢٠٠٥م ، ثم إعلان الفصائل الفلسطينية المشاركة في حوار القاهرة في منتصف مارس ٢٠٠٥م مع تأكيدها أن التزامها باستمرار مناخ التهدئة مشروط بالتزام صهيونيّ بوقف العدوان على الشعب الفلسطينيّ وإقامة الدولة الفلسطينية ذات السيادة وعاصمتها القدس ، والإفراج عن كافة الأسرى والمعتقلين وتأكيد حق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم ، وأن هذه الهدنة لن تستمر أكثر من بضعة أشهر ، رغم كل ذلك فإن إسرائيل استمرت في عدوانها على الشعب الفلسطينيّ وإن كان بشكل أقلّ وحشية من ذي قبل ، فحسب بعض المصادر الفلسطينية التي أوردتها مجلة القدس قامت قوات الاحتلال خلال فترة التهدئة وحتى منتصف مارس ٢٠٠٥م بإطلاق النار على الفلسطينيين أكثر من ٢٦٣ مرة ، وقصفت الأحياء السكنية ونفذت اقتحامات للمدن أكثر من ٤٦٥ مرة ، ونصبت حواجز لإعاقة تنقل الفلسطينيين أكثر من ٣٣٧ مرة ، وصادرت الآلاف من الدونمات الفلسطينية واستمرت في بناء المستوطنات أو التوسع فيها خاصة في القدس .

ويزيد الأمر سوءًا أن إسرائيل ظَلَّتْ حتى هذه اللحظة تتحرك بشكل مُنفرد دون أن تعترف بخريطة الطريق معلنة أنها ستنسحب من قطاع غزة اعتبارًا من ١٧ أغسطس ٢٠٠٥م ، بعد إخلاء مستوطناتها دون أن تقدم للسلطة الفلسطينية التي تحاول التنسيق معها خطة واضحة للانسحاب أو حتى إجابات على استفساراتها ، فهي تتصرف بطريقتها الخاصة وحتى يكون ذلك نموذجا لسلوكها فيما سيعقب ذلك من انسحاب من الضفة الغربية ومستوطناتها ، مُعلنةً أو مُعَلِّلَة بين وقت وآخر أنها لن تدخل في مفاوضات مع السلطة الفلسطينية قبل أن يتم تجريد الفصائل الفلسطينية من سلاحها والقضاء على كل مظاهر التَسَلُّح ، أيْ أنها تريد في الحقيقة تصفية المقاومة الفلسطينية ، ولا تجد السلطة الفلسطينية وسيلة تتذرع بها إزاء تصرف إسرائيل منفردة سوى الصبر ومحاولة التفاهم أو

التنسيق مع إسرائيل وكَبْح جماح الفصائل الفلسطينية في نفس الوقت ، والتي لا يجد معظمها فيما تقوم به إسرائيل بوادر أمل في تحقيق الأهداف المطلوبة سوى باستئناف المقاومة ضد العدوِّ الصهيونيِّ .

فهل يعني ذلك أن الانتفاضة ما تزال مستمرة وأنها يمكن أن تُسْتَأْنَفَ في أي وقت ؟

يُلَاحَظُ أن أعمال المقاومة لم تتوقف حتى بعد وفاة الرئيس عرفات وتولِّي محمود عباس (أبو مازن) قيادة السلطة الفلسطينية وجُهوده لإبعاد فصائل المقاومة عن استخدام السلاح حتى يُوفِّر المناخ المناسب لانسحاب إسرائيل ، لكن استمرار إسرائيل في ممارساتها ضد الشعب الفلسطينيّ سواء بمتابعة اغتيال الكوادر أو إطلاق النيران جُزَافًا على مواطنين فلسطينيين جعل الفصائل الفلسطينية بما فيها التابع لحركة فتح تقصف عددًا من المستوطنات الإسرائيلية بقطاع غزة بقذائف هاون وقذائف صاروخية ، إلَّا أن تلك الهجمات كانت محدودة منذ فبراير ٢٠٠٥م ، لكن استمرار هذه الهدنة أشهرًا أخرى قد يَعْني من الناحية العملية انتهاء انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠م ، ومُرَاقبة الشعب الفلسطينيّ وفصائله لتطورات الأحداث ، استعدادًا للقيام بانتفاضة أخرى – على الأغلب – إذا مَاطَلَتْ إسرائيل في انسحابها من الضفة الغربية أو عاودت الاعتداء الفعليّ على المسجد الأقصى أو رفضت الدخول في مفاوضات لتسوية القضايا الأساسية المرجأة ، فلقد أصبح الشعب الفلسطينيّ مهيأ أكثر من أيِّ وقت مَضَى لاستمرار نضاله وانتفاضاته .

ولعلَّ أخطر مَا يُواجه السلطة الفلسطينية خلال المرحلة القادمة إضافة إلى شَغْل فراغ الانسحاب الإسرائيليّ سواءً من غزة أو الضفة الغربية وإعادة بناء مؤسسات الدولة – هو تجنُّب حدوث صِدَام أو مواجهات بين الفصائل المختلفة أو بين بعض الفصائل وقوات الأمن الفلسطينية مثلما حدث في منتصف يوليو ٢٠٠٥م ، ولن يكون ذلك إلا باستمرار الحوار بين السلطة والفصائل ، والإبقاء على سلاح المقاومة إلى أن يتمَّ الاستجابة لمطالب الشعب الفلسطينيّ .

ذلك عرض مُوجَز لأوضاع القضية الفلسطينية منذ صدور الطبعة الأولى من كتاب

« الدولة اليهودية » عام ١٩٩٤م ، ولم يبق إلا أن أُؤَكِّد ما سبق أن أَوضحته في الطبعة الأولى من أن الهدف من ترجمة هذا الكتاب هو التعريف بالمخططات الصهيونية ، وتِبْيَان أسباب نجاحها في تحقيق أهدافها ، ولجوء روادها إلى التفكير المنظم والتخطيط الواعي ، واستماتتهم من أجل تحويل الأفكار النظرية إلى واقع عمليّ .

وإذا كان العالم العربيّ يتطلَّعُ في المرحلة الراهنة إلى تطبيع علاقاته مع إسرائيل بعد استعادة حقوق الشعب الفلسطينيّ ، فما أَحوجنا إلى مزيد من التَّنَبُّهِ واليقظة للمحافظة على هويتنا وثقافتنا وعدم السماح لثقافة الاستسلام باختراق حياتنا ، وتحقيق الصحوة الحضارية المطلوبة .

وإذا كان هرتسل – الذي يفتقر إلى الحقِّ والعدل في إقامة دولته – قد قام بتأليف كتابه من أجل خلق دولة لا وجود لها والاستفادة من كل القوى المحلية والعالمية لضمان قيامها واستمرارها ، فهل تعجز الأمة العربية – التي قدمت للبشرية عشرات من المفكرين – أن تُخْرِجَ مفكرًا يكتب لأمته عن الدولة العربية المرتقبة ، وكيف السبيل إلى يقظة الأمة وتحقيق أهدافها ، وهل من العسير على النخبة المثقفة أن تقدم لأمتها مشروعًا حضاريًّا متكاملًا ؟

ختامًا ، فالأمل كبير في وجه الله في أن تقوم الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس قبل أن تظهر الطَّبعة الثالثة من هذا الكتاب ، وليس ذلك على الله ببعيد .

والسلام على من اتبع الهدى .

الإسكندرية في ١٢ / ٨ / ٢٠٠٥م

عادل حسن غنيم

تقديم الطبعة العربية الأولى

ترجع فكرة ترجمة كتاب « الدولة اليهودية » إلى أكثر من خمس سنوات خلت عندما طلبت من صديقي الأستاذ محمد يوسف عدس الذي كان يومذاك مديرًا لمكتبات جامعة قطر أن يساعدني في البحث عن نسخة باللغة الإنجليزية من كتاب ثيودور هرتسل « الدولة اليهودية » حتى أقوم بترجمته ، حيث إنه – فيما أعلم – لم يتم نشره بالعربية رغم أهمية الكتاب وخُطورته .

ورغبة مني في إثارة اهتمام صديقي بالموضوع ، عَرَضت عليه في حالة العثور على الكتاب أن نقوم معًا بترجمته .

ومرّت عدة أشهر من محاولات البحث عن الكتاب ، إلى أن تمكن أحد الخبراء العرب الذين يعملون بالولايات المتحدة الأمريكية من تصوير طبعة الكتاب التي قدّمها الدكتور حاييم وايزمان عام ١٩٤٣م ، وكان فرحنا كبيرًا بوصولها ، ولم تمض فترة طويلة حتى عثرنا على ترجمة أخرى بالإنجليزية للكتاب .

وبدأنا نتفق على أُسلوب ترجمة الكتاب ، ورأينا أن نقوم بترجمته بطريقة خاصّة ، وهي أن يتولى كل منا ترجمة صفحات أو فصل من الكتاب ، ثم نجلس معًا لنراجع الترجمة فقرة فقرة ونُقَارن بين الترجمتين ، ونستقر بعدها على أفضل ترجمة ممكنة ، وبدأنا المحاولة الأولى ، لكن كل منا شُغل بعد ذلك ببعض همومه ، فقد شُغل الأستاذ عدس بمهام وظيفته في جامعة قطر ، كما شُغلت بعد ذلك بالانتهاء من بعض الأبحاث ، وتوقَّف مؤقتًا إنجازُ المشروع .

ومرَّ أكثر من عامين كان الأستاذ عدس قد نقل إقامته مؤقتًا إلى لندن ، حيث تابع البحث عن ترجمات أُخرى من الكتاب ، وأصبح تحت يده أربع ترجمات بالإنجليزية من الكتاب من بينها التّرجمة التي اعتمدناها للترجمة العربية ، علاوة على طبعة أخرى فرنسية .

وعَكَف الأستاذ محمد عدس في هدوء على ترجمة الكتاب . مُستفيدًا من تَفَرّغه ، ومن الجو الثقافي المُتَوَفّر له ، وسُهولة الاستفادة من المكتبات والمراجع المناسبة ، ومن

الرَّغبة المُلِحَّة في إنجاز المشروع . وكانت مفاجأة لي عندما تَلَقَّيتُ رسالة من لندن مُؤَرَّخة في شهر سبتمبر ١٩٩٢م يفيدني فيها أن الله قد وَفَّقه خلال إقامته في لندن لإنجاز ترجمة الكتاب . واقترح عليَّ أن أقوم بمراجعة الترجمة وكتابة تقديم للكتاب ، يتضمَّن دراسة عن الكتاب ومؤلفه وأهميتهما في نشأة الحركة الصهيونية .

وبدأت مع أواخر عام ١٩٩٢م مراجعة الترجمة ، توقَّفْتُ خلالها بعض الوقت بسبب ظُروف عملي ، وانتهيت منها والحمد لله خلال صيف ١٩٩٣م ، كنت خلالها على صلة منتظمة بالأستاذ محمد عدس سواء بالتليفون أو بالمُراسلة ، للاستفسار عن بعض النقاط ، أو لاستيضاح نقاط أخرى ، كما كان المُتَرجم من ناحيته يقرأ ويُتَرْجِم صفحات من سِيرة هرتسل مما تيسر له من مَرَاجع .

وُلِدَ ثيودور هرتسل في مدينة بودابست في ٢ مايو ١٨٦٠م ، ودَرَس في فيينا حتى عام ١٨٨٤م ، وعَمِل منذ عام ١٨٨٥م كاتبًا في المجالات السياسية والأدبية ، حيث نُشِر أوَّل مقال له في ٢٧ مايو من ذلك العام ، وأصبح منذ عام ١٨٩١ وحتى ١٨٩٥م مُراسلًا في باريس لـ « الجريدة الحرة الجديدة » التي كانت تَصْدُر في فيينا ، وخلال هذه الفترة (٨ نوفمبر ١٨٩٤م) ألَّف مسرحية « الجيتو الجديد » التي كانت تتحدث عن الأوضاع الاجتماعية للطبقة اليهودية العليا في فيينا ، والتي كانت محاولة للتعبير عن تَوَجُّهات هرتسل في المسألة اليهودية ، وبدأ يُسَجِّل يومياته منذ عام ١٨٩٥م . وقد التقى هرتسل في ٢ يونيه مع البارون « دي هيرش » حيث قدَّم له هرتسل خطته لعمل سياسيّ ، لكن « دي هيرش » لم يُرَحِّب بتلك الخطة ، بينما اعتبر هرتسل هذا اللقاء بداية عمله من أجل الصهيونية ، كما كتب خلال شهريْ يونيه ويوليه عام ١٨٩٥م المسوَّدة الأُولى لهذا الكتاب « الدولة اليهودية » .

وطبقًا لما ذكره « ديزموند ستيوارت » فقد بحث هرتسل عن ناشر يهوديّ فَاتَّصل أوَّلًا بسيجموند كرونباخ من برلين ، الذي لم يُعجبه أفكارُ الكتاب ، وفَضَّلَ أن ينشر على سبيل الانتقام من هرتسل كتاب « يوميات حلاق » بدلا من « الدولة اليهودية » .

وقد اتصل هرتسل بعد ذلك بماكس بريتنشتين في فيينا ، حيث تعاقد معه في ١٩ يناير عام ١٨٩٦م على نَشْر ثلاثة آلاف نسخة من الكتاب كطبعة أولى .

ولم تكن رُدود الفِعل الأولى للكتاب مُشَجِّعة حيث وصفه أحدُ الكُتاب بأنه لم يكن سوى نزوة عابرة ، لكن هرتسل كان لديه الأمل بأن أفكاره ستكون مقبولة من اليهود وأعدائهم فيما بعد .

وبناءً على دعوة هرتسل تمَّ عَقْد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل بسويسرا (٢٩ - ٣١ أغسطس ١٨٩٧م) ، وتَلَتْهُ خمسةُ مؤتمرات صهيونية أخرىٰ خلال حياة هرتسل .

فقد عُقِدَ المؤتمر الصهيونيّ الثاني من (٢٨ - ٣٠ أغسطس ١٨٩٨م) بمدينة بال ، وعُقِدَ المؤتمر الصهيونيّ الثالث من (١٥ - ١٧ أغسطس ١٨٩٩م) بنفس المدينة ، وَعُقِدَ المؤتمر الصهيونيّ الرابع في ٢ أغسطس ١٩٠٠م بمدينة لندن ، وعُقِدَ المؤتمر الصهيونيّ الخامس من (٢٩ - ٣١ ديسمبر ١٩٠١م) بمدينة بال ، وعُقد المؤتمر الصهيونيّ السادس من (٢٢ - ٢٨ أغسطس ١٩٠٣م) ، بنفس المدينة . وقد تُوُفِّيَ هرتسل في ٣ يوليه ١٩٠٤م حيث دُفِن في فيينا ، وتمَّ نقل رفاته إلى مكان مجاور لمدينة القدس عام ١٩٤٩م .

ولا بد أن نوضِّح أولا أن « ثيودور هرتسل » لم يكن مبتدع الفكر الصهيونيّ وصائغه ، فقد سَبَقَهُ كثيرون قدم كل منهم فكرة أو أفكارًا معينة ، لكن هرتسل كما ذكر بعد ذلك لم يكن على عِلم بتلك الأفكار عندما أَلَّفَ « الدولة اليهودية » ، فموسى هس مثلا مؤلّف كتاب « روما والقدس » عام ١٨٦٢م رأى في القومية اليهودية حلًّا للمشكلة اليهودية ، وليون بنسكر مؤلِّف كتاب « التحرُّر الذاتيّ » عام ١٨٨٢م صاحب فكرة الوطن القوميّ اليهوديّ .

كما أن هرتسل لم يكن أول من استخدم كلمة « صهيونية » فالذي تَفَتَّق ذِهْنُه عن هذا التعبير هو « ناثان بيرنبوم » ، لكن فَضْل « هرتسل » أنه بَلْوَرَ تلك الأفكار جميعها وَحَدَّد الأهداف الأساسية للحركة الصهيونية ، واقترح أفضل الوسائل لتنفيذها .

كان « هرتسل » مجرَّد مُخَطِّط أو مُفَجِّر للطاقات الكامنة لدي اليهود ، وباعثٍ للأمل في نفوسهم ، وتجميعهم حول فكرة واحدة تستحوذ على أفكارهم ومشاعرهم . كان على قناعة شديدة بنجاح مشروعه أو خطته ، وبقيام الدولة اليهودية المُرْتَقَبة . فهو يتحدَّث عنها في كُتَيِّبه وكأنها حقيقة واقعة .

ولقد أَطَلَّت فكرة الكتاب على ذهن « هرتسل » في منتصف عام ١٨٩٥م ، وانتهى من تسجيل أفكاره مع أواخر ذلك العام ، ونَشَره مع مطلع العام التالي (فبراير ١٨٩٦م) .

والاسم الأصليّ للكُتَيِّبِ هو « دولة اليهود » وليس « الدولة اليهودية » ، لكننا نجد هرتسل في مذكراته يستخدم عبارة « الدولة اليهودية » ، وهناك فرقٌ مقصود بين العنوانين . فدولة اليهود تعني أن يكون اليهود أغلبية في دولة . أما « الدولة اليهودية » فتعنى أنها دولة خاصة باليهود وَحْدَهُم .

كانت فكرة « هرتسل » الأساسية بسيطة غاية البساطة « فَلَمَنْحُ السيادة على جزء من الأرض يكفى للاحتياجات الحقيقية لأُمَّة ، وسوف نتكفلّ نحن بالباقي » . ولعل هذا المنطق هو ما نَفَّذته مُؤَخّرًا منظمة التحرير الفلسطينية عندما وافقت على اتفاق الحكم الذاتيّ الفلسطينيّ الذي يبدأ بالانسحاب من غزة ومنطقة أريحا ، باعتبارها منطقة محدودة يمكن تحريرها وفرض السيادة عليها ، وبدء التحرُّك منها لبناء الدولة الفلسطينية . لكن الفارق بين مقولة « هرتسل » وما تبنته قيادة المنظمة أن خطة هرتسل لم تكن معروفة لدى العرب ، واستفاد الصهاينة من أوضاع العرب والعالم خاصَّةً في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى لتنفيذ خطتهم ، مُستعينين بكل وسائل الخداع والمُرَاوغة والتضليل لتنفيذ أهدافهم ، مُدْخِلين في وَهْم العرب أنهم لا يَقْصدون إقامة دولة يهودية ، وإنما يريدون الاستقرار في منطقة من فلسطين يأمنون فيها من الاضطهاد ، إلى أن تَمكَّنُوا من بناء قوتهم الذاتية ، وأصبحوا مُهيَّئين لمواجهة العرب .

أما خُطة منظمة التحرير الفلسطينية فَهِي واضحة للعالم كله ، وهو ما سيجعل نجاح المنظمة في تحقيق أهدافها مرتبطًا بعوامل عديدة ومعقَّدة .

لكنه يُلَاحَظُ أن الغموض يَلُفُّ كثيرًا من عبارات « هرتسل » وأفكاره ، فلا يعبر عنها في إيضاح ، بل إنه يعترف في بعض الفقرات أن مشروعه يبدو وكأنه شيء غامض بلا هدف ، أو أن كُتيبه يتضمن أمورًا سطحية مَعيبة ، وأشياء مكررة عديمة الفائدة .

بل إنه في فقرات أخرى يَخْرُج عن الموضوع الذي يناقشه ، ويتكلم في نقاط لا تَخدم سياق الموضوع .

ففي حديثه عن « الهجرة في جماعات » يتحدث فجأة عن العلاقات الزواجية لليهود مع المسيحيين ، وعن العلاقات الأخرى التي تربط اليهود بالمسيحيين .

ولا شك أن ثقافة « هرتسل » القانونية والمسرحية ، كان لها أثر على صياغة أفكاره ، فلقد أعطته الثقافة القانونية نظرة خاصة للقضايا العامة جعلته يَحْرص على توفير الشَّكل القانوني للأُمور ، أَو مَا يُسَمّيه رجال القانون « الإجراءات القانونية » ، وهو ما نَراه واضحًا في كتابه « الدولة اليهودية » ، ثم في قرارات المؤتمر الصهيونيّ الأول الذي عقد في ٢٩ أغسطس ١٨٩٧م ، حيث تقرَّر الدعوة لقيام وَطَن قوميّ يهوديّ يَضْمَنُه القانون العام .

أما عن أثر الثقافة المسرحية في فِكْره ، فسوف نَلْحَظُها بشكلٍ وَاضح في كتاب « الدولة اليهودية » حيث نجد فصولًا مرتبطة الحلقات مُحَدَّدة المعالم ، مُتَّسِقة الألوان ، مُتَّسِمةً بشيء من الخيال الذي يلجأ إليه المُؤَلّفون عادة لاستكمال جوانب الصورة ، وإثارة المشاهدين أو المستمعين ، وربطهم بالأهداف العامة والقضايا الكبرى . أو بمعنى آخر فصولًا تتوفر فيها الحبكة المسرحية ، كما يقول رجالات المسرح اليوم ، وإن كان ذلك لا ينفي وُجود خَلل في بعض المشاهد ، أو تَنَاقضٍ في الأفكار .

لم يكن « هرتسل » مُفَكّرًا مُتَعَمِّقًا ، كما أنه لم يكن مُؤَرِّخًا ، لكنه كان كاتبًا سياسيًّا أحس بآلام اليهود وآمالهم ، وانفعل مع مُعَاناتهم ، فتحوّلت هذه الشحنة النفسية والعاطفية لديه إلى محاولة ذهنية لإيجاد مَخْرج سياسيّ لتلك المُعَاناة ، يتحمَّل المجتمع الدوليّ كله مسئوليتها .

ولا يُتَوَقَّع من كاتب صهيونيّ عندما يدافع عن قضية تَخُصُّ بَني مِلَّته أن يكون

موضوعيًّا ، فهو ينحاز إلى جانب اليهود سواء كانوا ظَالمين أو مَظْلومين ، بل إنه يُعْلن ذلك صراحةً عندما يقول : إنه ينظر إلى حرَكة العداء للسامية من وجهة نظر يهودية بحتة .

لكن « هرتسل » رغم هذه الملاحظة ، نَجح في طَرْح أفكاره وفي عَرْض كل التفاصيل الدقيقة لنجاح خُطته .

ولعلَّ القارئ سوف يَعْجَبُ من تلك الموضوعات والنقاط التي تَعَرَّضَ لها « هرتسل » في حِرْصٍ بالغ منه على أن يَسُدَّ الطريق على أية مُعارضات أو إثارات لخطته .

فهو لم يكتف بإثارة النّقاط الكبرى مثل اللغة ، والقوانين والجيش ، وإنشاء الجمعية اليهودية ، وتَشْكيل الشركة اليهودية ، وشراء الأراضي ، واعتبار الملكية الخاصة الأساس الاقتصاديّ للاستقلال ، لكنه يتحدّث في تفاصيل التفاصيل وكأنه كما يقول أستاذنا الدكتور أحمد طربين يبني بيديه الدولة اليهودية لبنة لبنة .

ومن الأُمور التي تَطَرَّق إليها « هرتسل » كيفية تصفية أعمال المهاجرين والوسائل الكفيلة بذلك ، وطريقة نَقْل المُهَاجرين والبضائع ، والجهات التي تقوم بعمليات النّقل ، والحِرْص على عدم استغلال المُهَاجرين ، وكيفية التعامل مع العجزة المُهَاجرين ، ونظام الأجور الإضافية عند العمل الإضافيّ ، وأهمية الزواج المبكر ، ووسائل الرفاهية لدى اليهود ، والمساكن التي تبنى للعمال وللطبقات اليهودية الفقيرة في الوطن المرتَقَب ، وأين تُقَام تلك المنازل ، وأهمية ضمان الشركة اليهودية لِسَلامة المباني ، إلى غير ذلك من التَّفاصيل التي يمكن ترك بَحْثها للأجهزة الصهيونية المَعْنِيَّة ، لكن قناعته بالفكرة وحِرْصُه على نجاحها دَفَعَهُ إلى البحث في تلك التفصيلات الدقيقة .

* **وترجع أهمية كتاب « الدولة اليهودية » في تقديرنا إلى عدد من العوامل المهِمَّة :**

أولًا : أن الكتاب نقل المسألة اليهودية من قَضِيّة محليّة تَخُصُّ اليهود في الوطن الذي يعيشون فيه سواء كان روسيا أو ألمانيا أو غيرها إلى قضية سياسية عالمية ، فلم تَعُد مسئولية مواجهة تلك المشكلة تعود إلى السلطات المحلية في كل بلد على حِدة ، بل أصبحت مسئولية عالمية على كل دولة مناقشتها ومُواجهتها ، وإيجاد الحلول لها .

كان اليهود حتى تلك اللحظة ـ كما يذكر « لويس لبسكي » Louis Lipsky ، في مقدمته لإحدى طبعات كتاب « الدولة اليهودية » – غير مُتَواصلين مع الغُرباء ، لكنه من خلال « هرتسل » تَعَلَّم اليهود ألَا يخشوا من آثار ظهور حركة دولية للمطالبة بحريتهم القومية .

لقد تحرَّرت أَرواحهم ، ولم يعودوا يعيشون في الجيتو . لقد عَلَّمهم « هرتسل » ألا يَتَوارَوا في الأركان ، وجعلهم يشعرون بأن عَالمًا بأسره قد ينحاز إلى قضيتهم .

ثانيًا : أن اليهود لم يكونوا يُعْتَبَرون شعبًا قبل كتاب « الدولة اليهودية » ، حيث كانوا أقليّة مُنْطوية على نفسها في معظم بلدان أُوربا ، فجاء كتاب « الدولة اليهودية ».للقضاء على انعزالهم وانطوائيتهم وشَتاتهم ويجعل منهم شعبًا ، ولم يكن لهم دولة ، فَحَدَّثهم « هرتسل » عن الدولة المُرْتَقَبة ، أيْ أن الكتاب جعل منهم شعبًا وجَعَل لهم دولة .

ثالثًا : أن اليهود وَجَدوا أمامهم لأوّل مرة في تاريخهم دليل عمل للحركة الصهيونية متمثِّلًا في كتاب « الدولة اليهودية » الذي حَدَّد لهم معالم الطريق ، وَوَضع النِّقاط على الحروف ، وطرح المُشكلات ، وقدَّم لها الحلول ، ولم يكن مجرّد أفكار متناثرة كما عبّر بعض مُفَكّري الصهاينة الذين سبقوا « هرتسل » ، لكن الكتاب لم يكن نظرية كما قال البعض ، ولم يكن شطحات فكرية كما قال آخرون ، بل كان دليلًا للعمل الصهيونيّ ، آمنت الحركة الصهيونية بمضمونه ، واعتبرته دستورًا لمستقبلها ، وسَارت على خُطى أفكاره حتى تمَّ بناء الدولة اليهودية ، بل إن بعض رجالات الحركة الصهيونية وَضَعوا الكتاب في منزلة لا تقلّ عن مَنْزلة التوراة لدى اليهود ، كما وَضعوا « هرتسل » في منزلة لا تقلّ عن منزلة موسى – عليه السلام – .

لقد كان أحد أهداف إصدار الكتاب هو إيجاد حُلُول للمشكلات المختلفة التي يمكن أن تُواجه المُهَاجرين سواء في البلاد المهاجرين منها أو إليها ، وهو ما أعطاه « هرتسل » جزءًا مُهِمًّا من اهتماماته ، ليس فقط من أجل طَمْأنة المهاجرين على أموالهم ومُمْتَلَكاتهم في أوطانهم الأصلية ، أو بعد وُصُولهم إلى الوطن المرتقب ، بل أيضًا من أجل توفير الظروف المناسبة لنجاح الخطة ، وإيجاد البدائل المختلفة لتنفيذها ، وهو ما

نجح « هرتسل » في طرحه إلى حدٍّ كبير .

وهناك عدد من الملاحظات المهِمّة التي يُمْكن استشفافها من قراءة هذا الكُتيب المهِمّ :

أولًا : « هرتسل » كان حريصًا على عدم استثارة أهل البلاد في الوطن المرتقب تَجَنُّبًا لثورتهم ، وحتى لا يُفسدوا الخُطَّة اليهودية ، فهو يقول في أحد المواضع : « **وعند وُصُول المهاجرين سَيُرَحَّب بهم ... بالاحترام الواجب ، ولكن بدون تهليلٍ مُضحك ، فإن أرض الميعاد لن تكون قد خضعت بعد ...** » .

وهو ما تم تنفيذه فعلًا ، حيث ظلّ المَطْلب الصهيونيّ الرّئيسيّ منذ المؤتمر الصهيونيّ الأول في بازل عام ١٨٩٧م هو إقامة وَطن قوميّ يهوديّ في فلسطين يضمنه القانون العام ، ولم يُحاول المسؤولون الصهاينة حتى عام ١٩٤٢م سواء على المستوى المحليّ أو العالميّ - المُطَالبة بإقامة دولة يهودية . ولم يحدث ذلك إلا في عام ١٩٤٢م بعد أن قَويت شَوكة اليهود ، وتم فعلًا بناء الوطن القوميّ اليهوديّ تحت رعاية ودَعْم ومُسَاندة الحكومة البريطانية . فعلى المستوى المَحَلّيّ خطب الزعيم الصهيونيّ « بن جوريون » في تل أبيب في مارس ١٩٤٢م حيث أعلن « **أن الصهيونية قد انتهت من وَضْع خُطتها النهائية ، وهو أن تُصْبحَ فلسطين دولة يهودية ، وأن اليهود لا يستغنون عن أيّ قسم من فلسطين حتى قمم الجبال وأعماق البحار** » .

وعلى المستوى العالميّ عَقَد الصهيونيون مُؤتمرهم الشهير في فندق بلتمور بمدينة نيويورك في الفترة من ٩ إلى ١١ مايو ١٩٤٢م تحت إشراف مجلس الطوارئ الأمريكيّ للشؤون الصهيونية ، وحضر المؤتمر ستمائة يهوديّ أمريكيّ وعَشَرات من الصهاينة القادمين من الخارج ، كما حَضَره « وايزمان » و « بن جوريون » ، وكان أحد أهداف المؤتمر الإعلان صَرَاحةً عن أهداف الحركة الصهيونية حيث تضمّنت قرارات المؤتمر تحقيق المَقْصد الأَصليّ من تصريح « بلفور » وصكّ الانتداب بإتاحة الفرصة لليهود لإنشاء كومنولث يهوديّ في فلسطين .

ثانيًا : أن « هرتسل » تحدث بصراحة في أكثر من عبارة عن كيفية احتلال الأراضي الجديدة ، والوَسائل التي يمكن بواسطتها احتلال الأرض By these means a country can be occupied مما يعني بوضوح أن « هرتسل » كان يُدرك جيِّدًا أن الخُطة تقضي باحتلال الأراضي في الوطن الجديد – سواء تم ذلك في فلسطين أم في الأرجنتين – وليس استعادة الأراضي في فلسطين كما تُردِّد المراجع الصهيونية .

ومن يَقْرأ يومياته سوف يجد إشارات صريحة متعدِّدة إلى ذلك الاستعمار الذي سيقوم به الصهاينة في فلسطين ... « **ثم انتقلت إلى التعمق في الحديث عن مخططي ، فقلت إنه لن يكون استعمارًا على نطاق ضيق بل على نطاق واسع . نريد البلاد لحكم ذاتيّ** » .

وإذا كان الصهاينة قد نجحوا في نهاية الأمر في إقامة الدولة اليهودية ، والتَّوسع على حساب العرب ، وهم الذين كانوا يحلمون بحكم ذاتيّ في أواخر القرن التاسع عشر ، فهل تنجح قيادة عرب فلسطين في تحويل الحكم الذاتيّ لقطاع غزة والضفة الغربية إلى دولة فلسطينية مثلما فعل اليهود فيما سبق ، وهل يمكن أن يعيد التاريخ نفسه كما يُردّد بعض المؤرخين ؟ . إن التاريخ في رأينا لا يعيد نفسه أبدًا ، وإنما قد تحدث أُمور مُتشابهة ، فيقول البعض إن التاريخ يُعيد نفسه ، لكننا إذا تعمَّقنا في فهم الأمور سوف نجد أمورًا جديدة وأوضاعًا مختلفة ، ونتائج متباينة .

ثالثًا : أن « هرتسل » لا يجد غَضَاضة في الاعتراف بالدولة اليهودية المنتظرة كرأس حربة لأوربا نظير ضمان أوربا لوجودها حيث يقول في كُتيبه : « ومن هناك سوف نُشَكِّل جزءًا من استحكامات أوربا في مواجهة آسيا كموقع أماميّ للحضارة في مواجهة البربرية . وعلينا – كدولة طبيعية – أن نبقى على اتصال بكل أوربا التي سيكون من واجبها أن تضمن وجودنا » .

ويكرر « هرتسل » هذا المعنى في أكثر من موضع ، فعندما يتحدث عن إنشاء الشركة اليهودية يؤكد أنها سوف تكون تحت حماية انجلترا ، مما يوضّح أن اليهود كانوا يعرفون حق المعرفة أنهم غير قادرين – رغم أموالهم وإمكاناتهم – على القيام وَحْدَهم ببناء الدولة المنتظرة ، وأنه لا بد من الاعتماد على الدول الاستعمارية لدعم قيام هذه الدولة

وحمايتها في المستقبل .

رابعًا : أن دعوة « هرتسل » لاختيار فلسطين أو الأرجنتين كمقرّ للوطن المُرْتَقب ، رغم إشارته أكثر من مرة لأرض الميعاد ، يعني أنه لم يكن هناك اتفاق بين القيادات الصهيونية حول اختيار بلد معين مقرًّا للدولة اليهودية ، وأنه لم يكن هناك مَا يَمْنَع هجرة اليهود إلى بلد آخر غير فلسطين ، يدلنا على ذلك موافقة أغلبية المؤتمر الصهيونيّ السادس عام ١٩٠٣م على اختيار أوغندا مقرًّا للوطن القومي اليهودي ، رغم قرار المؤتمر الصهيوني الأول في « بازل » ١٨٩٧م بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

ويتضّح من يوميات « هرتسل »[١] أنه شعر بالنَّدم لعدم تركيزه في كتابه حول فلسطين وَحْدها ، فقد كتب إلى أحد وكلائه في العاصمة التركية في ٤ يونيه ١٨٩٧م بعد أن ازدادت آماله في أن تكون فلسطين هي مقر هذا الوطن يقول : « **بادئَ ذي بدء ، يجب ألا يُؤخَذ كتابي (الدولة اليهودية) كشكل حاسم للمشروع . إني أول من يَعْترف أن فيه الكثير من العقائديات . وقد نشرت الفكرة ، وكنت آنذاك مجرّد كاتب بسيط ، دون أن أعلم كيف يستقبلها الشعب اليهوديّ ، وأفضل بُرهان على ذلك هو أنني اقترحت الإقامة إما في الأرجنتين أو في فلسطين . لكن الحركة اليهودية الجديدة أخذت منذ آنذاك شكلًا مختلفًا بالمرة ، وأصبحت عملية وممكنة ...** » .

ومن ناحية أخرى فإن إشارات « هرتسل » في كُتيبه إلى « أرض الميعاد » لم يكن مقصودًا به فلسطين بالذات ، وإنما كان المقصود تلك الأرض التي سيهاجرون إليها ، سواء كانت فلسطين أو الأرجنتين أم غيرها ، وإن كانت فلسطين هي أمَلَهم النهائي فيما بعد ، يَدُلّنا على ذلك ما وَرَد في رسالته إلى « آل روتشيلد » المُؤَرَّخة ١٤ / ٦ / ١٨٩٥م والتي تضمَّنتها يومياته السابق الإشارة إليها : « **حالما تتألف الجمعية اليهودية سندعو إلى مؤتمر يَشْمل عددًا من الجغرافيين اليهود ليقرروا ؛ لأنه بمساعدة هؤلاء العلماء الذين**

(١) اعتمدت في جميع إشاراتي إلى يوميات هرتسل في هذا التقديم على اليوميات التي نشرها مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ترجمة : هلدا شعبان صايغ ، وإعداد أنيس صايغ .

يخلصون لنا بحكم يهوديتهم ، يتم تقرير المكان الذي سَنُهاجر إليه ؛ لأني سأخبركم الآن كل شيء عن « أرض الميعاد » ، إلا عن مكانها . هذه مسألة علمية صرفة ، لذا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار العوامل الجيولوجية والطّقس وغيرها من العوامل الطبيعية .. » .

ومتى استقر رأينا على القارة والبلد ، فسوف نبدأ بالخطوات الدبلوماسية ، ونَسير فيها بغاية اللباقة ، حتى لا يكون عملنا قائمًا على تصورات مُبْهَمة . سآخذ الأرجنتين كمثل . لقد فكرت أولًا بفلسطين ، التي لها مزية أنها مركز شعبنا وأجدادنا الذي لا يُنْسى ، وهذه حقيقة تستجذب العامة من الناس ، ولكن معظم اليهود لم يبقوا بعد شَرْقيين . وقد تعوّدوا على مناطق مختلفة كل الاختلاف . وكذلك فإنّه من الصعب جدًّا إنجاز خطتي في النقل إلى هناك ، الخطة التي ستجيء فيما بعد . وكذلك أيضًا تظل أوربا قريبة ، بينما نحتاج في ربع القرن الأول من وجُودنا إلى الابتعاد عن أوربا ومَشَاكلها العسكرية والاشتراكية ، إذا كنا نريد أن ننجح . ولكنّي مبدئيًا لست ضد فلسطين ولا مع الأرجنتين . علينا فقط أن نجد طقسًا منوّعًا يُلائم اليهود الذين هم مُتَعَوّدون على البَرْد ، أو هؤلاء المُتَعَوّدون على طقس أدفأ ... » .

وهكذا نجد أن تقديرات المستقبل لم تكن مَرْئية - في وضوح - لدى « هرتسل » عندما أَلّف كتابه « الدولة اليهودية » ، فلم يكن حتى ذلك الوقت مستقرَّ التفكير على مكان تلك الدولة .

ولم يكن يعرف مدى ترحيب اليهود بأفكاره ، كما أنه وجد معارضة لتوجهاته في البداية من بعض كبار الشخصيات اليهودية وأثرياء اليهود ، حتى أن اليهود في بعض المدن مثل مدينتيْ ميونخ وبرلين لم يُرَحّبوا بعقد المؤتمر الصهيونيّ الأول في مدينتهم ، لكن طاقاته الفكرية انطلقت من عِقالِها بعد انعقاد المؤتمر الصهيونيّ الأول في مدينة « بال » بسويسرا في ٢٩ / ٨ / ١٨٩٧م ، فقد أدرك أن الحلم بدأ يتحوّل إلى حقيقة ، وأن مشروعه قابل للنجاح ، وأن الرأي العام الصهيونيّ يلتفُّ حول أفكاره وقيادته ، باعتباره هو المنقذ أو المُخَلِّص الذي سيتم على يديه خلاص اليهود من آلامهم ومشاكلهم ، ومنذ ذلك الوقت بدأ استشفاف المستقبل يبدو واضحًا أمام عينيه ، ولذلك نراه يتكلم بأسلوب

الواثق من نجاح خُطّته ، المتأكد من إقامة الدولة اليهودية ولو بعد حين ، وهو ما تنطق به كلماته بعد عقد مؤتمر « بازل » : « **لو طلب منّي تلخيص مؤتمر بازل في كلمة – وعليّ أن أحرص على عدم تَلَفُّظها بصوت عال – لكانت هي : في بازل أقيمت أسس الدولة اليهودية . لو قلت ذلك بصوت عال لضحك الجميع مني . لكن ربما في خمس سنوات ، وبالتأكيد في خمسين سنة ، سيعلم كل واحد بالأمر . إن تأسيس دولة لَيَكْمُنُ في إرادة الشعب بإنشاء دولة ، بل يكمن أيضا في إرادة فرد قويّ قوة كافية ... الأرض هي فقط الأساس المادي ، والدولة حتى حينما تملك الأرض ، هي دائمًا شيء معنوي . إن دولة الكنيسة تقوم بدونها ، وإلا لما كان البابا صاحب سيادة** » .

« **في بازل إذن أنشأْتُ هذا الكيان المعنويّ الذي لا تراه – كما هو – أغلبية الناس الساحقة ، أنشأته بوسائل قليلة جدًّا ، وبالتدريج وضعت الناس في جو مناسب للدولة ، وجعلتُهم يشعرون أنهم هيئة وطنية** » .

ولا بد أن نُسَجِّل في هذا التقديم ملاحظة مهمّة تلفت نظر المتابع لسيرة هذه الشخصية ، خاصة في مراحل تأليف « الدولة اليهودية » وما بعدها ، فقد كان الفكر والتخطيط لديه مرتبطين ارتباطًا وثيقًا بالعمل والتصميم والمتابعة اليومية لمشروعه . فمنذ بدأ كتابة مُسَوَّدة كتابه « الدولة اليهودية » في منتصف عام ١٨٩٥م قام باتصالاته العديدة ومقابلاته مع مختلف السياسيين والمسئولين في العالم ، ممن يرتجي منهم خيرًا لمشروعه ، أو ممن يمكنهم أن يقدموا له الدعم والمساندة ، وعلى مدى تسع سنوات كاملة كان دائم النشاط والحركة والحيوية ، لم يتوقف عن عقد الاجتماعات وإجراء الاتصالات وكتابة الرسائل ، والالتقاء مع عشرات السياسيين في العالم خاصة الألمان والبريطانيين والإيطاليين والنمساويين ، كما قابل قيصر ألمانيا وملك إيطاليا ، والبابا في روما ، والسلطان عبد الحميد ، ووزير داخلية روسيا والزعيم الإسماعيليّ « أغا خان » ، والزعيم المصريّ « مصطفى كامل » وغيرهم كثيرون مِمَّن وَرَد ذكرهم في يومياته ، وهو ما لا يتسع المجال لذكرهم هنا – وقد حاول « هرتسل » تحقيق فائدة في كل مقابلة ، حيث حصل على وعد من هنا ، ودعم من هناك ، ومُراوغة من هذا ، ومماطلة من ذاك ، لكن

همته لم تفتر ، ولم يجعل لليأس أثرًا في نفسه ، بل ظل رافعًا رايته ، مدافعًا عن فكرته ، مستميتًا في الدفاع عنها ، مستخدمًا كل الوسائل الموصلة إليها ، مشروعة أو غير مشروعة ، شريفة أو غير شريفة ، فالغاية عنده تبرر الوسيلة ، والقضية التي يتولى زمامها تستحق التضحية بكل غالٍ ونفيس ... وإن الإنسان ليعجب كيف يمكن لشخص بمفرده كان يفتقر في بداية حركته إلى المساندة حتى من غالبية يهود العالم ، يقوم بتلك الجهود والاتصالات المتوالية والمتتالية من أجل تحويل مشروعه إلى واقع عمليّ ، وهو ما تنطق به يومياته الحافلة بكل أنواع النشاط والفعالية والإرادة والشعور بالمسئولية .

ورغم الصورة الباهتة والقاتمة في الموقف العربيّ والإسلاميّ آنذاك ، فإننا نجد بعض المواقف الإيجابية ، خاصّة في موقف السلطان عبد الحميد الذي حرص « هرتسل » منذ بداية نشاطه على إجراء اتصالات غير مباشرة معه عن طريق أحد أصدقائه ، لكن موقف السلطان رغم تردِّي أوضاع الدولة العثمانية اقتصاديًّا ، وعروض اليهود السخية لإنقاذ الدولة من عثرتها ، كان من المواقف الخالدة التي سجّلها التاريخ للدولة العثمانية بأحرف من نور ، فطبقًا لما ورد في يوميات « هرتسل » قال السلطان لصديق « هرتسل » : « إذا **كان « هرتسل » صديقك بقدر ما أنت صديقي ، فانصحه أن لا يسير أبدًا في هذا الأمر . لا أقدر أن أبيع ولو قَدَمًا واحدًا من البلاد ، لأنها ليست لي بل لشعبي ، لقد حَصَل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمائهم ، وقد غذُّوها فيما بعد بدمائهم ، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا ... الإمبراطورية التركية ليست لي وإنما للشعب التركيّ ، لا أستطيع أبدًا أن أعطي أحدًا أيَّ جزء منها . ليحتفظ اليهود ببلايينهم ، فإذا قُسِّمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مُقابل ، إنما لن تُقَسَّم إلا على جثتنا ، ولن نقبل بتشريحنا لأيِّ غرض كان** » .

تلك لمحة مختصرة عن ظروف صدور هذا الكتاب « الدولة اليهودية » وأهميته في بَلْوَرَة مَسَار الحركة الصهيونية وتحديد مَعَالمها ، والأفكار الأساسية التي طرحها أو عالجها ، وأَهمّ توجهاته السياسية ووسائله التكتيكية لإنشاء الدولة اليهودية .

ولا شك أَن حياة « هرتسل » ، سواء قبل إصدار « الدولة اليهودية » أو بعده ، تستحق

التأريخ والمتابعة – وهو ما يحتاج إلى دراسة خاصة ليس هنا موضعها – فلقد تجسدت في هذه الشخصية آمال اليهود وآلامهم ، وتجمعت الظروف الموضوعية لتبرز الزعيم ، وتمكن « هرتسل » من تَفَهُّم تلك الظروف واستثمارها ، لصالح القضية التي أحسن طَرْحها والدفاع عنها ، وتجميع الأنصار والرواد من حولها ، فكانت « الدولة اليهودية » ، بعد أن كانت مجرّد كتيب لا تتجاوز صفحاته المائة إلا بقليل .

أما عن مُتَرْجم الكتاب الصديق الأستاذ محمد يوسف عدس – الذي ترجع علاقتي به إلى أربعين عامًا خَلَت عندما كُنّا طلابًا بالمرحلة الثانوية – فقد تخرّج في قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٥٧م حيث عمل مدرسًا للفلسفة ، وأمينًا لمكتبة مدرسة طوخ الثانوية ، ثم عُيِّن مديرًا للمركز الثقافي بمانيلا (الفلبين) ، حيث قام على إنشاء وتجهيز المركز ، ثم أصبح مفتشًا للمكتبات بمديرية التربية والتعليم ببنها ، فأمينًا لمكتبة المعهد العالي للتكنولوجيا ببندجو ، فيكتوريا بأستراليا ، ثم استكمل دراسته العليا في علم المكتبات والمعلومات في جامعة كامبرا حيث عُيِّنَ أمينًا بالمكتبة القومية بأستراليا ، فخبيرًا للمكتبات بمنظمة اليونسكو ، ثم مديرًا لمكتبات جامعة قطر .

وخلال تلك السنوات كان نموذجًا طيبًا للمثقف الذي يحمل بين جنبيه حبًّا لوطنه ، والتزامًا بمسئولياته ، وخدمة لقضايا أُمّته ، ولم يكن في كل المواقع التي عَمِل بها يُؤدي عملًا روتينيًا مثل الكثيرين ، بل كان يحاول الابتكار والتجديد . فعندما أَشْرَف على النشاط الثقافيّ بمدرسة طوخ الثانوية ومجلس مدينة طوخ قام بإعداد وتطوير برامج متنوعة للشباب ، من محاضرات وندوات عامة ، وإجراء مُسابقات ، وإصدار نَشَرات وصُحف ، وأنشأ مكتبة عامة نموذجية بمجلس المدينة ، وشَكَّلَ أَوَّل أُسرة لأصدقاء المكتبة في مدينة طوخ ، أصبحت علامة مميزة في حياة المدينة ، واستمر أثرها على مدى ثلاثة عُقود .

كما أَسْهَم في إنشاء ثلاث مكتبات عامة بمحافظة القليوبية ، ومكتبة للناشئين (الأطفال من سن ٦ إلى ١٤ سنة) كانت المرة الأولى التي يتم فيها تصميم وتجهيز مبنى خاص لمكتبة أطفال ، مُزَوَّدة بحديقة وقاعة خاصة للاستماع ، كما تم لأول مرة أيضًا إدخال الكتاب المسموع إلى جانب الكتب التقليدية .

وإضافة إلى ذلك النشاط فقد أسهم في وَضْع لائحة للمكتبات العامة لوزارة الإدارة المحلية ، وقام بدراسةٍ لأدب الأطفال في مصر قدَّمها إلى وزارة التربية والتعليم . كان ذلك في مرحلة مزدهرة من تاريخ الإدارة المحلية في مصر شهدت نماذج طيبة من رجالات الإدارة المحلية المستنيرين المُخلصين ، الذين أتاحوا للعاملين معهم مناخًا طيبًا للعمل والإبداع .

أَما من ناحية الإنتاج الفكري للمُتَرْجم ، فإلى جانب التقارير العديدة التي قدمها خلال عمله خبيرًا بمنظمة اليونسكو للمكتبات ومديرًا للمكتبات بجامعة قطر ، والتي وَرَدَ ذكرها كمراجع في كتاب « المكتبات ومراكز المعلومات بدولة قطر » الذي أصدره مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر ، فقد صدرت له المؤلفات الآتية :

١ – « الفلبين » ، سلسلة شعوب العالم (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩) .

٢ – « المعذبون » ، مجموعة قصيرة من الأدب الفلبيني مترجمة عن الإنجليزية ، تأليف بينفنيدو سانتوس (القاهرة : الدار العالمية للنشر ، ١٩٨٤) .

٣ – The Political History of Egypt (1952 - 1970) Bibiigraphical Essay , and an Annotated Bibliography . Canberra , Canberra College of Advanced Education, 1975 .

وإضافة إلى تلك التجربة الثقافية الثرية ، فإنه يتوفّر للمترجم الأدوات الأساسية للترجمة ، فهو مُلِمٌّ إلمامًا جيدًا باللغتين العربية والإنجليزية ، كما أن ثَقافته الواسعة ، وخبرته السابقة في التّرجمة ، قد أَفادته ولا شك في ترجمة هذا الكتاب الذي بَذَل فيه جهدًا كبيرًا ، ولم يكن مُتَعَجِّلًا في ترجمته ، واضطر أحيانًا إلى استشارة الطبعات الأُخرى عندما يغمض المعنى ، بسبب تركيب لغوي معقَّد ، أو احتمال سُوء الترجمة أصلًا .

ولعلَّ محرري الطبعات اللاحقة قد استشعروا نفس المشكلات . فعدَّلوا كثيرًا من المواضع التي كان بها صعوبة في الترجمة ، كما أن أصل الترجمة الإنجليزية يرجع إلى عام ١٨٩٦م ، أي إلى لغة القرن التاسع عشر ، واللغة تتطور وتختلف مَعَانيها من عصر إلى آخر ، وتختفي تعبيرات لتظهر تعبيرات أخرى . بل إنه في العصر الواحد قد تختلف معاني الكلمات

من بلد إلى آخر ، بل إنه في البلد الواحد مثل مصر قد نجد للكلمة معنى في الوجه القِبْلي يختلف عن مثيله في الوَجْه البَحري ، ولذلك يحاول علماء فقه اللغة معرفة مدلول الكلمات ومُتَابعة تغير معانيها من عصر إلى آخر ، ولعل ذلك هو الذي دعا المُتَرجم إلى الرجوع إلى « قاموس أكسفورد » ، الذي يكشف عن التطور التاريخي لاستخدام الكلمات ، إلى جانب استشارة القواميس الأُخرى اللاتينية والألمانية ، حيثما اقتضت الضرورة ذلك ، بل إنه رجع إلى مصادر تاريخية وسياسية لاستيضاح جوانب معينة تخصُّ عصر وظروف الترجمة الأصلية التي تمت بمعرفة « سيلفي دافيجدور » Sylvie d'Avigdor ، وقام بنشرها في لندن الناشر Nutt عام ١٨٩٦م اعتمادًا على نص « هرتسل » الأصلي الذي نُشِر بالألمانية في فبراير من نفس العام تحت عنوان Der Judenstaat .

ولقد كان يُشار كثيرًا إلى « هرتسل » وكتابه في الكتابات التاريخية والسياسية على مدى العقود الماضية دُون أن يكون هناك ترجمة عربية منشورة للكتاب ، تُمَكِّن القارئ العربيّ من الرُّجوع إليها والتَّحقُّق منها ، غير معتمد على اقتباسات الآخرين وتعليقاتهم .

وهكذا ظل كتاب « الدولة اليهودية » شَبَحًا يَسْمَعُ الناسُ عنه ولا يرونه . ولست أدري على وجه اليقين لماذا أحجم المترجمون العرب عن نشر هذا الكتاب رغم أهميته ، ورغم كثرة ما تُرجم إلى اللغة العربية من الكتب الأجنبية المختلفة .

وبعد ، فَيَسُرُّني ومُتَرْجم الكتاب أَن نقدم هذا الكتاب إلى المكتبة العربية والمثقفين العرب بشكل عام ، وطلاب الدراسات التاريخية والسياسية بشكل خاص ، إسهامًا منَّا في ترجمة أهم المصادر المتعلقة بتاريخ أُمتنا العربية ، وتعريفًا بتلك المحاولات التي استهدفت تمزيق أوصالنا ، بزرع كيان عنصريّ استيطانيّ في أرض فلسطين المقدَّسة ، حيث أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، ومَهْد النبيّ عيسى ـ عليه السلام ـ .

ولا شك أن مرور حوالي مائة عام على صدور كتاب « الدولة اليهودية » وترجمته إلى لغات عديدة دون أن يُنْشَر باللغة العربية ، وهو الذي يستهدف أصلًا تلك الأرض العربية ، ويَشرح ضمن ما يَشْرح أُسلوب الهجرة اليهودية وكيفية شراء الأراضي ، وعدم استثارة

أهالي البلاد حِرصًا على نجاح الصهيونية ، وهي نقاط كانت كافية – لو عَرَفها العرب في حينها – لإدراكوا حقيقة المخططات الصهيونية التي كانت تَهْدف إلى انتزاع أراضيهم ، وإغراق فلسطين بموجات من اللاجئين اليهود من مختلف بلاد العالم .

ولعل ذلك يُفَسِّر لنا لماذا لم يَقُم الصهاينة بإصدار طبعات أخرى من كتاب « الدولة اليهودية » قبل عام ١٩٤٣م باستثناء طبعة واحدة في عام ١٩٣٦م ، فقد أعلن الصهاينة عام ١٩٤٢م عَزْمهم على إقامة الدولة اليهودية بعد أن انتهوا قبل الحرب العالمية الثانية من إقامة الوطن القوميّ اليهوديّ ، فلم يعد يهمّهم إصدار طبعات جديدة من الكتاب ، وإطلاع الآخرين على خُطَطهم ومَقَاصدهم .

ومن هنا فقد صدر من الكتاب عدة طبعات أُخرى بعد الطبعة الثانية التي صدرت عام ١٩٤٣م – وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها في نقل الكتاب إلى العربية – فقد حَصَلنا على طبعات أخرى من الكتاب صدرت في الأعوام ١٩٤٦ ، ١٩٧٢ ، ١٩٨٨ ، وربما تكون قد صدرت طبعات أخرى .

فلم يَعُد الصهاينة يهتمون بإطلاع العرب على مَضَامين الكتاب ، وربما تَصَوّروا أن العرب لا يهتمون بترجمة الكتاب ، أو لا يحرصون على قراءته ، بسبب ما انتابهم من تمزُّق وتَفَسُّخ ، وعدم إعطاء الاهتمام الكافي لقضاياهم المصيرية .

ولعل ذلك يُذَكّرني بتصريح قرأته بعد حرب ١٩٦٧م لموشي ديان بأنه سَيُصْدِر كتابًا عن حرب ١٩٦٧م يضم في صفحته الأخيرة نَصَائح للعرب إذا أَرادوا الانتصار على اليهود في الحرب التالية ، فلما قيل له أنه بهذا يساعد العرب على هزيمة اليهود ، قال « إن العرب لا يقرأون ، وإذا قرأوا فإنهم لا يَصِلون إلى الصفحات الأخيرة .

ولعل هذا يُمَثّل استهانة بالعقلية العربية ، مما يَتَطَلّب أن نؤكّد لهؤلاء الناس أننا لا نقرأ إنتاجهم فقط ، بل ندرسه ونُحَلّله ونكشف النّقاب عن مقاصده .

لقد انعطفت القضية الفلسطينية الآن منعطفًا جديدًا خطيرًا ، وما يجري على الساحة السياسية ليس إلا أصداء وصورًا خارجية تقترب أو تبتعد عن حقيقة ما يدبَّر لهذه الأمة ،

ومن واجب المثقفين العرب أن يكشفوا عن المصادر الأصلية للأفكار التي تُؤَثّر في حركة التاريخ من حولنا ، وتضع الظروف الموضوعية التي تحدد حركتنا أو تقيدها .

وكتاب « الدولة اليهودية » أحد هذه المصادر المهمّة التي يجب تأملها والوقوف عندها ، وإدراك بواعثها ومنطلقاتها .

ولعلّ هذا الكتاب يذكرنا دائمًا بعملية نَهْب ، من أكبر عمليات النهب الاستعمارية في التاريخ ، وهي عملية انتزاع فلسطين من أهاليها على يد الصهيونية العالمية ، بدعم ومباركة ومساندة من القوى الاستعمارية المعاصرة جميعها ، والتي تَمَثَّلت في النهاية في إقامة دولة إسرائيل ، التي تهدد الأمة العربية في حاضرها ومستقبلها ، والتي يعتبر وجودها في حد ذاته مُعَاديًا لحركة التاريخ .

وإذا كان التاريخ العربيّ قد شَهِد خلال السنوات الأخيرة تنازلات عديدة ، نتيجة لتردي الأوضاع العامة في وطننا العربيّ ، وفرض الهيمنة الاستعمارية والدولية على بعض بلدانه ، مما أسهم في قبول كثير من الحلول الوسط لبعض قضاياه ، وغض الطرف عن كثير من التّعديات الأخرى ، فإن الكلمة والفكرة العربية لم تسقطا بعد ، وستظل تفعل فعلها في ضمير هذه الأمة حتى تستيقظ من غفوتها ، وتستعيد كرامتها وعزتها ، ويخرج من بين أبنائها من يجمع شتاتها ، ويوحد صُفوفها ، ويأخذ بيدها في عالم لا يعترف إلا بالأقوياء ، مهما كانت قضاياهم عادلة .

ولا شك أَن الأمة العربية في حاجة ماسّة إلى إعادة النظر في كثير من الظروف التاريخية التي مرَّت بها ، والتعرف على الأسباب الحقيقية لأزماتها ونكساتها ، واستخلاص العظات والعبر منها ، تمهيدًا لوضع مشروع حضاريّ للمستقبل يستمد أصوله من الشريعة الإسلامية ، ومن الفكر العربيّ الأصيل ، ومن تُراث البشرية وحضارتها .

وإذا كان « هرتسل » - الذي يفتقر إلى الحق والعدل في إقامة دولته - قد قام بتأليف « الدولة اليهودية » مستخدمًا كل قدراته الذهنية والنفسية وخبراته الصحفية والقانونية ، من أجل خلق دولة لا وجود لها ، وتهيئة كل الأسباب من أجل نجاحها ، والاستفادة من

كل القوى العالمية لضمان قيامها واستمرارها ، فهل تعجز الأمة العربية – وهي الأمة التي قدّمت للبشرية عشرات المفكرين – أن يخرج من بينها مفكر يكتب لأمته عن « الدولة العربية » المرتقبة ، وكيف السبيل إلى يقظة هذه الأمة ، وتجاوز خلافاتها ، وتوحيد صفوفها ، وتحقيق عوامل نهضتها ؟ وهل من العسير على النُّخبة المُثقفة أن تقدم لأمتها العربية مشروعًا حضاريًّا متكاملًا لحاضرها ومستقبلها ؟ .

إنَّ الهدف من ترجمة هذا الكتاب ليس إبراز دور « هرتسل » وأهمية كتابه رغم كونه دورًا مؤثرًا وفعّالًا في إقامة الدولة اليهودية ، لكننا نهدف أساسًا إلى التعريف بالمخططات الصهيونية ، وأسباب نجاحها في تحقيق أهدافها ، ولجوء رُوّادها إلى التفكير المنظم والتخطيط الواعي ، واستماتتهم من أجل تحويل الأفكار إلى واقع عمليّ .

وقد يقول البعض : **وما جَدْوي تعريفنا الآن بالمخططات الصهيونية بعد توجه الأنظمة العربية نحو السلام مع إسرائيل خاصة بعد اتفاق الحكم الذاتيّ ، ومَا يُبْذَل من جهود لِتَسْوية الأُمور مع باقي الجبهات ، تمهيدًا لتطبيع العلاقات مع مختلف البلدان العربية ، وأن الأمر لم يعد يحتاج إلى الاستمرار في رفع شعار « اعرف عدوك » ؟**

فإلى هؤلاء نقول : إنَّ مرحلة السلام قادمة – بغض النظر عن مضمونها وعن مقاصدها – تحتاج منا إلى مزيد من التنبه والوعي واليقظة لأَنها أخطر من مراحل الحرب ، وإنه لكي نُحافظ على هُويتنا ونهضتنا ، فعلينا أن نُضاعف من وَعْيَنا بأعدائنا القدامى ، وأن نزداد معرفة وإحاطة بالقادمين الجدد ، حتى لا تتكرر هزائمنا مرتين : مرّة في مراحل الحرب ، وأُخرى في مرحلة السلام .

فهل تستطيع الأمة العربية ، بما تَوَفَّر لها من فِكْر وعُقول مبدعة ، وثروات هائلة ، وتاريخ مشترك ، وعبقرية في المكان ، أن تدرك هذه المعاني ، وتزداد حفاظًا على هويتها ودَعْمًا لوحدتها ، وتنسيقًا لمواردها وطاقاتها من أجل تحقيق صحوة عربية إسلامية ، تُعيد لهذه الأمة دورها الخالد ومجدها التليد ؟ هذا ما نأمله ونتوقعه لو عرفت الأمة العربية من أين تبدأ ، وما السُّبُل المؤديةُ إلى تحقيق الغايات .. وهي المسئولية التي تقع – بشكل

خاص – على عاتق المفكرين والمثقفين في هذه الأمة ، فهل يتقدمون لتحمل هذه المسئولية ؟

ختامًا : نَحْمد الله أن وَفَّقَنا لتقديم هذا الكتاب المهمّ إلى القارئ العربيّ ، آملين أن يُسْهِم كُتَّاب آخرون في ترجمة العديد من المَصَادر التي تتعرض لقضايانا المَصِيريّة

وبالله التوفيق ، ومنه وحده العون والسَّداد .

عادل حسن غنيم

رجب ١٤١٤هـ

يناير ١٩٩٤م



الدولة اليهودية

ثيودور هرتسل



تقديم الطبعة الإنجليزية
(حاييم وايزمان) (*)

يَشْغَل كُتيّب « الدولة اليهودية » لثيودور هرتسل مكانة منفردة بين الكتابات الكلاسيكية عن « الصهيونية » . إنَّ عَظَمة هذا الكتيب لا تَكْمُن في أَصالته ، إنه لم يُقَدِّم تحليلًا جذريًّا جديدًا للمشكلة اليهودية حتى عام ١٨٩٥ .

فكتاب « موسى هيس »(١) Moses Hess « روما والقدس » مُفْعَم برثاء تاريخي لليهود لم يرتفع إلى مستواه هرتسل . كذلك فإن ليون بنسكر(٢)

(*) هو حاييم وايزمان أحد زعماء الصهيونية البارزين وأوّل رئيس لدولة إسرائيل . وُلد في روسيا عام ١٨٦٤م . حَصَل على الدكتوراه في الكيمياء من ألمانيا وعمل في سويسرا ثم رحل إلى انجلترا .. وفي مانشستر جمع حوله جماعة من الصهيونيين الذين كانوا نُواة الحركة الصهيونية في انجلترا . وقد اكتشف خلال الحرب العالمية الأولى وسيلة أرخص لتكوين مادة الأسيتون الحارقة التي ساعدت الإنجليز في الحرب . قام بدور مهم في المباحثات التي سبقت إصدار تصريح بلفور . رأس المنظمة الصهيونية العالمية منذ عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٣١ واستعاد رئاستها عام ١٩٣٥م . أهم مؤلفاته هو كتاب « التجربة والخطأ » وقد توفى عام ١٩٥٢م . (عبد الوهاب محمد المسيري ، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية) ، (القاهرة : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، ١٩٧٥م) ، ص ٤٣٠ ، ٤٢٩ . (**المراجع**) .

(١) هو أحد مُفَكّري الصهيونية ، وُلد في ألمانيا عام ١٨١٢م ، واهتم بدراسة التاريخ ولكنه لم يحصل على درجة علمية . استقر معظم حياته في باريس . كان على اتصال بالأوساط الاشتراكية كما كان صديقًا لكارل ماركس ، واشترك في الثورة الألمانية عام ١٨٤٨م ، وحكم عليه بالموت . وقد نَشر عام ١٨٦٢م كتابه « روما والقدس » الذي يدعو فيه إلى بعث القومية اليهودية في القدس بعد تحريرها حيث يشكل الدين اليهوديّ عنصرًا أساسيًّا في هذا البعث القوميّ . وقد أسهم في بعض الأعمال للاستيطان اليهوديّ في فلسطين ، وتوفى عام ١٨٧٥م . (نفس المصدر) ، ص ٤١٨ ، ٤١٩ . (**المراجع**) .

(٢) أحد مفكري الصهيونية السياسية ، وهو طبيب روسيّ كان زعيمًا لجماعة أحبّاء صهيون . ولد =

Leon Pinsker في كتابه « التحرر الذَّاتيّ » استطاع أن يتعمَّق في واقع الحياة الاجتماعية والنفسية لليهود المُشَرَّدين أكثر مما فَعَل « هرتسل » في كتاباته الأولى كصهيوني .

ومع ذلك فإنَّ هذين الكتابين المبشرين بصحوة قومية لم ينجحا في إثارة استجابة كتلك التي أَحْدَثها نَشْر كتيب « الدولة اليهودية » ، فما الذي جعل هذا الكتيب ينجو من المَصير المهم الذي انتهى إليه الكتابان السابقان عليه : « روما والقدس » و « التحرر الذاتي » ؟

ولماذا دوّت دعوته في كل مجتمعات اليهود شرقًا وغربًا ؟

قد يُعْزَى نجاحه جُزئيًا إلى الوقت الذي ظهرت فيه – في تلك الأيام العصيبة – قضية دريفوس[١] Dreyfus التي طَرحت المشكلة اليهودية بشكلٍ

= في روسيا عام ١٨٢١م ، دَرَس الحقوق في أودسيه والتحق بجامعة موسكو حيث حصل على شهادة طبية . كان يكتب مقالات لعدة مجلات يهودية ، وقام بجهود كبيرة لنشر ثقافة الاستنارة بين اليهود الروس لكنه تراجع بعد ذلك عن تلك السياسة ، واقترح إعادة توطين اليهود في وطن آخر ، وتجوّل في عواصم أوربا داعيًا لتلك الفكرة ، لكنه وجد معارضة ممن قابلهم من القادة اليهود ، فألف كتابه « التحرر الذاتي » الذي نبه فيه إلى أن معاداة السامية مَرض أزلي ، وأن اليهود يعيشون كغرباء في البلاد التي يعيشون فيها ، وأن الحل الوحيد هو إقامة دولة صهيونية تضم كل العناصر اليهودية التي تعاني من الشتات ، على أن تساند الفكرة الشعوب التي تضطهدهم وتود الخلاص منهم ، لم يُصِرّ على فلسطين كمركز للتجمع اليهودي ، لكنه تحت تأثير أتباعه دعا بعد ذلك إلى تحقيق فكرة الدولة الصهيونية في فلسطين . وشجّع بعض أغنياء اليهود لمساعدة الاستيطان اليهودي . وقد توفي عام ١٨٩١م (نفس المصدر ، ص ١٠٤ ، ١٠٥) . (**المراجع**) .

(١) ألفريد دريفوس هو ضابط فرنسيّ يهوديّ ولد عام ١٨٥٩م ، واتهم بالتجسس لحساب ألمانيا عام ١٨٩٤ حيث حكم عليه بالسجن مدى الحياة ، وقد تم العفو عنه بعد سنوات من حَبْسه ، لكن القضية كانت قد تحولت من قضية فردية عادية إلى قضية سياسية حيث وَجَد الصهيونيون =

جاد أمام كثير من اليهود الذين لم يكونوا على وَعْي بها من قبل ، وقد يُعْزَى نجاح الكُتيب أيضًا إلى بساطة الصِّياغة التي يشعر القارئ أن وَرَاءها قوة جوهرية . ولكن أعظم الأسباب حقيقة ترجع إلى شخصية المُؤَلّف التي تتجلى في ثنايا صفحات « الدولة اليهودية » .

إنَّ هرتسل منذ البدايات المبكرة لانشغاله بالعمل الصهيونيّ ، عندما كان لا يزال مُنهمكًا في عُزلته في دراسة المشكلة غير مُدْرك تمامًا لحيرة الآخرين إزاء نفس المشكلة – قد استحوذ عليه إحساس بالرسالة مع نداء باطني دَفَعَاه إلى أن يحمل على عاتقه عِبئًا ظل يَنُوء به حتى آخر يوم في حياته .

لقد كتب هرتسل فيما بعد مُتَحَدّثًا عن مَشَاعره أثناء تأليفه لكتاب « الدولة اليهودية » : « **إنّني لا أذكر أنني كَتبت شيئًا وأنا في حالة من النَّشوة العقلية كتلك الحالة التي كنت فيها وأنا أُؤلّف هذا الكتاب ؛ قال هين Heine مرة إنه كان يسمع حفيف أجنحة مَلاك فوق رأسه عندما كان يكتب بعض أشعاره ، لقد سمعت أنا أيضا حفيفًا مُمَاثلًا وأنا أُؤلّف هذا الكتاب ، فكنت أعكف على الكتابة كل يوم حتى يهدّني الإجهاد** » .

= في تلك القضية فرصة لإثارة قضية معاداة السامية ، وملأوا الدنيا صياحًا لإقناع الأقليات اليهودية بحتمية الحل الصهيونيّ للمسألة اليهودية . ويُقال : إن هذه القضية كانت نقطة التحول في موقف كثير من مفكّري الصهيونية الذين كانوا يدعون إلى اندماج اليهود في الشعوب التي يعيشون في كنفها – وعلى رأسهم هرتسل . وقد صدر عام ١٩٠٦م حُكم من محكمة النقض الفرنسية ببراءة دريفوس وإعادته إلى منصبه في الجيش الفرنسي ، لكن ذلك تم بعد أن كانت القضية قد أدّت دَوْرًا في خدمة الحركة الصهيونية عند نشأتها في أواخر القرن التاسع عشر (نفس المصدر ، ص ١٨٤ ، ١٨٥) . (المراجع) .

لعل شيئًا من هذه النشوة والشعور المصيريّ قد انتقل إلى المئات من كل أرض وصقع ومعتقد ، فاستجابوا لدعوته وتجمَّعُوا في أوّل مؤتمر للصهيونية[1] في « بازل » بعد عامين من نشر كتاب « الدولة اليهودية » .

واليوم ونحن نتصفح هذا الكُتَيِّب تتراوح مَشَاعرنا بين الإعجاب والدَّهشة ؛ فإلى جانب التحليل الاجتماعيّ النفسيّ النافذ الذي عبر عنه « هرتسل » بألمعية مُتَأَلِّقَة نجد – لدهشتنا – خططًا تفصيلية ساذجة لا ضرورة لها على الإطلاق ، لتنظيم هجرة اليهود من الشتات ، وللمؤسسات والقوانين ، وحتى لأساليب السلوك في الدولة المستقبلية .

هذه التفاصيل – كما يبدو – تكشف عن اعتقاد « هرتسل » في سرعة تحقيق حلمه الذي اعتمد في تركيبه على عوامل خارجية اجتلبها بطريقة سهلة نسبيًا ، فهو لم يستطع أن يتصور الطريق الصعب الطويل الذي يقود إلى

---

(١) المقصود هنا هو المؤتمر الصهيوني الأول ، وهو المؤتمر الذي دعا هرتسل إلى عقده في ٢٩ أغسطس ١٨٩٧ في مدينة بازل بسويسرا ، وحضره ٢٠٤ يهوديّ كانوا يمثلون معظم يهود العالم . وكان أهم ما أنجزه المؤتمر هو اتخاذ قراره الخطير « إن هدف الصهيونية هو إنشاء وطن لليهود في فلسطين يضمنه القانون العام » وقد تَبَنّى المؤتمر أربع وسائل لتحقيق هذا الهدف حددت فيما يلي :

١ – تشجيع استيطان العمال الزراعيين والصناعيين اليهود في فلسطين وفقًا لخطوط مناسبة .

٢ – تنظيم اليهود وربطهم جميعًا بواسطة مؤسسات عامة على الصعيدين المحليّ والعالميّ ، تتلاءم مع القوانين المرعيَّة في كل بلد .

٣ – تقوية المشاعر اليهودية والوعي القوميّ اليهوديّ وتعزيزهما .

٤ – اتخاذ خطوات تمهيدية للحُصُول على موافقة الحكومات المعنية ، حيث يكون ذلك ضروريا لتحقيق هدف الصهيونية (أحمد طربين ، فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار ١٨٩٧ – ١٩٢٢ (القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٠) ، ص ٦٢ . (**المراجع**) .

الخلاص من جالوت Galuth .

وعندما كتب هرتسل « الدولة اليهودية » كان لديه صورة شَاحبة عن المجتمعات اليهودية الكبرى في شرق أوربا ، وعن ثقافاتهم واختلافاتهم الفكرية ، وطُموحاتهم الوطنية والاجتماعية ، وكانت معرفته بميكانزمات القوى السياسية قائمة على انطباعات سطحية لصحفيّ فنان مُهتم بالأَضواء والظلال التي تحيط بالسياسة أكثر من اهتمامه بصراع المصالح التي هي - إلى حد بعيد - صميم القوى السياسية .

وفي الحقيقة ، كنا نحن أصدقاؤه الصِّغار وزملاؤه - نُدرْك تمامًا هذه الثغرات في تكوينه كقائدٍ يهوديٍّ ، وكنا كثيرًا ما نُوجِّه إليه النقد متسائلين عن الحكمة في بعض تحركاته السياسية . ومع ذلك فلا أحد منا كان يحمل أدنى شك في أنه هو وحده الذي كان مُؤهلًا لقيادتنا .

كان من خصائصه الكبرى الإيمان والتواضع ، ولكنه لم يكن رجلًا متواضعًا بالمعنى العادي للكلمة ، فقد كان يتشامخ أمام كبار رجال الدولة أو ملوك المال من أبناء شعبه عندما يلتقي بهم - تَشَامُخًا يقترب من الغطرسة - وكان هذا يبدو للآخرين غير مُتَّسِق مع غياب القوة السياسية للحركة التي يمثلها « هرتسل » .

إنَّ عظمة « هرتسل » الحقيقية تتجلّى في تواضعه أمام إخلاص وإيمان الجماهير اليهودية المُتواضعة في « الجيتو » بأوربا الشرقية والذي اكتشفه خلال نشاطه بالحركة الصهيونية .

ومن ثَمَّ كانت أكثر العبارات تأثيرًا في مذكراته تلك التي تُشير إلى مَندوبي

أوربا الشرقية إلى المؤتمر الصهيونيّ الأول .

لقد اكتشف في جيتو فيلنا Vilna ووارسو جيشًا كبيرًا من العمال والمُشَايعين علم أنه يمكن الاعتماد عليهم حتى الموت . وكان هذا الاكتشاف جديدًا بالنسبة له ، ومنذ تلك اللحظة اعتبر أن أعظم طموحاته أن يكون جديرًا بثقتهم .

لقد كان يُلازمه شَبح المَذَابح التي أثارت - في ذلك الوقت - خيال اليهود الغربيين ، إلا أنها كانت تعبيرًا مُخفّفًا عن العداء للسامية إذا قُورنت بما يحدث في الوقت الراهن .

إنه لم يدرك مَعين الصَّبر الذي لا يَنضب ولا الثبات الأَخلاقيّ الذي ساد جيتو بـ « فيلنا » و « وارسو » ، هذا الصَّبر الذي كان قادرًا على استيعاب المُعَاناة على أَمل أن القادحين لليهود سيتلاشون كما تلاشى من سَبقهم في الماضي .

غير أنه كان مُصَمِّمًا على خَلْق مَلاذ مؤقَّت لهؤلاء الناس خاصة عندما تبيَّن له أن الحل الفلسطيني قد يأتي متأخرًا أكثر مما كان يظن .

كان « هرتسل » عقلانيًا أو ما نُسَمِّيه اليوم عمليًا مقارنة بالموقف العقليّ الذي تشوبه نزعة صوفية تتميّز بها مجتمعات اليهود الشرقيين .

لقد وُوجِه « هرتسل » بأكبر مفاجأة في حياته كلها عندما قُوبل مشروعه في الحل الأوغنديّ بمقاومة هؤلاء اليهود الذي كانوا أحوج ما يكون إلى هذا الملجأ(١) .

---

(١) المقصود هنا : هو مُعارضة يهود أوربا الشرقية لهرتسل خلال المؤتمر الصهيوني السادس الذي عقد في مدينة بازل عام ١٩٠٣م بسبب قبوله لمشروع أوغندة ، وهو المشروع الذي وَافق المؤتمر عليه بالأغلبية. (المراجع) .

كان اليهود المستقرين في أوربا الغربية على استعداد لإرسال الشّرقيين إلى أوغندا ، ولكن الشرقيين فضلوا الانتظار في وسط الخطر على أن يتخلوا عن إيمانهم بالحل النهائيّ للمشكلة اليهودية في فلسطين .

ورغم الإحباطات والهموم الكثيرة التي عَانَاها « هرتسل » خلال الفترة القصيرة التي عمل فيها قائدًا للصهيونية ، فإنه لم يفقد إيمانه بحتمية إنشاء الدولة اليهودية . وعندما كتب مُؤلّفه « الدولة اليهودية » كان يُدرك بصعوبة حجم العمل الذي كان منشغلًا به لبدء الخطوات الأولى فيه تجاه ما أسماه « الحل الحديث للمشكلة اليهودية » ، كما أنه لم يكن مُدركًا لحقيقة الدَّوْر الذي كان عليه أن يقوم به ؛ ففي مقدمته للمؤلف كتب يقول : « إنني أَشْعر أنه بمجرد نشر هذا الكُتيب ستكون مُهمّتي قد انتهت ، وأنني لن أحمل القلم مرة أُخرى إلا إذا دَفَعني إلى ذلك هجومُ خُصُومٍ ذوي شأن ، أو إذا أصبح من الضروريّ التَّصدي لاعتراضات غير متوقعة أو أن أُزيل بعض الأخطاء .

وفي الحقيقة كانت مهمة « هرتسل » قد بدأت ، فخلال السنوات الباقية من حياته كان عليه أن يُخْضع نفسه كلية لمتطلبات الحركة التي أسسها . قال في كلمته الافتتاحية بالمؤتمر الصهيونيّ الأول : « ينبغي أن نَتَغاضى جميعًا عما كتبناه أو قلناه من قبلُ كأفراد فلا يصح أن يبقى إلا ما يقرره المؤتمر » .

كانت السنوات التي أعطاها من عُمره لقيادة الحركة الصهيونية بالنسبة له فترة إعادة تعلم وإعادة صياغة روحية .

ولو كان رجلًا آخر فلربما كان قد انسحب في مواجهة الكثرة الكثيرة من الإحباط والخذلان .

ولكن هرتسل لم يفقد إيمانه الذي عبَّر عنه في السطور الأخيرة من كتيبه « الدولة اليهودية » : « إنني أعتقد أن جيلًا رائعًا من اليهود سينبثق إلى الوجود .. إنَّ اليهود الذين يريدون الدولة اليهودية ستكون لهم . وسوف نحيا في النهاية رجالًا أحرارًا على أرضنا ونَموت بسلام في بيوتنا ، وسوف يتحرّر العالم بتحرُّرِنا ، ويغتني بثرواتنا ، ويعظم بعظمتنا ، وأيًّا ما حاولنا إِحرازه هناك من أجل صالحنا فسوف يرتد بقوة وفائدة لخير الإنسانية » .

وخلال السنوات الخمس والعشرين الماضية أُتيحت لنا الفرصة لتحقيق هذه الرؤية . وحتى مُعارضينا كثيرًا ما يتحدَّثون بإعجاب عن « الجيل المعجزة من اليهود » الذي استطاع خلال المغارم والتضحيات أن يُحوِّل فلسطين إلى وطن لمئات الألوف من اليهود .

كذلك الجوانب الكالحة في رؤية « هرتسل » قد تحقَّقت هي أيضًا بفزع أكبر مما كان يتخيّله أحدنا في أكثر الكوابيس ظَلامًا .

إن المشكلة اليهودية .. مأساة اليهود الذين لا وَطَن لهم – التي تنفتح أمام أعيننا الآن بكل ما تَنْطوي عليه من حاجة مُلِحَّة وجذرية – لتضع على أجندة الإنسانية الحل العظيم لهرتسل .

إنَّ جيلًا جديدًا من اليهود قد تُتَاحُ له الفرصة لإتمام هذا الذي بدأناه ، ولسوف يَسْتَمِدُّون الإلهام والشجاعة من الرؤية الواضحة والإيمان النبيل الذي ينبثق من صفحات كتاب ثيودور هرتسل « الدولة اليهودية » .

حاييم وايزمان

مقدمة المؤلف

إنَّ الفكرة التي طَوَّرْتُها في هذا الكُتيب فكرة مُوغِلة في القِدَم ، هي فكرة استعادة الدولة اليهودية . إنَّ العالم يُرَدّد صيحات صاخبة ضد اليهود ، وهذه الصّيحات هي التي أيقظت الفكرة من سُبَاتها .

وأَوَدُّ في بادئ الأمر أن يكون مَفْهومًا بشكل جَليّ أن حُجَّتي لا تَنْبَني في أي من أسانيدها على اكتشاف أمْرٍ جديد ، فأنا لم أكتشف الأوضاع التاريخية لليهود ولا الوسائل لتحسين تلك الظُّروف . وفي الحقيقة فإن كل إنسان يستطيع أن يرى بنفسه أن عَنَاصِر الفكرة التي أقوم بالتخطيط لها ليست موجودة فحسب ولكنها حقًّا ظاهرة للعيان . ومن ثَمَّ فإن هذه المحاولة لحل المشكلة اليهودية يمكن وَصْفُها بكلمة واحدة « توليفة » ، ولكنها بالتأكيد ليست خيالًا .

لا بد لي – بصفة مبدئية – أن أُجَنِّب مشروعي أن يعامله النقاد السطحيون على أنه « يوتوبيا » ، فإنهم أحرى أن يرتكبوا هذا الخطأ في التقدير ما لم أُبَادر إلى تحذيرهم . ومن الواضح أنني لن أكون قد فعلت شيئًا أخجل منه لو أنني صَوّرت هذه اليوتوبيا على أُسُس إنسانية .

كذلك كنت أستطيع على الأرجح أن أُحَقّق نَجاحًا أدبيًّا أكثر يُسْرًا لو أنني قدَّمت مشروعي مُتَدَثِّرًا بثوب قصة رومانسية غير مسئولة . ولكن مثل هذه اليوتوبيا ستكون أقل جاذبية بكثير من تلك اليوتوبيات التي كتبها « توماس مور » وكثيرون من سابقيه أو لاَحِقيه ، كما أني أعتقد أن أوضاع اليهود في كثير من البلاد من الخطورة بحيث لا تسمح بمثل هذه الصياغة العبثية التي لا ضرورة لها .

لقد ظهر منذ بضعة سنوات كتاب مثير بعنوان « الأرض الحرة » من تأليف د .

ثيودور هرتسكا Theodor Hertzka ربما يُوضِّح لنا الفرق الذي وَضْعته بين فكرتي وبين الفكر اليُوتوبي ؛ فهذا الكتاب اختراع عقل - ساذج - استغرقته مبادئ الاقتصاد السياسيّ ، وهو بَعيد عن الواقع بُعْدَ المرتفعات الاستوائية التي أقام عليها دولته الحلم .

إنّ « الأرض الحرة » قطعة ميكانيكية معقدة فيها كثير من التروس المتداخلة ، ولكن ليس هناك ما يُثبت أنه يمكن تشغليها . وحتى مع افتراض ظهور مجتمعات الأرض الحرة إلى الوجود فإنني لا بد أن أنظر إلى الأمر على أنه نكتة . أما المشروع الذي أطرحه الآن فإنه ينطوي على توظيف قوة دافعة موجودة بالفعل . وسوف أقتصر على الإشارة إلى التُّروس والعجلات الخاصة بالآلة التي نُريد بناءها ، وسوف أعتمد على المهندسين المَهرة في تركيبها أكثر من اعتمادي على نفسي .

إنَّ كل شيء يعتمد على قوتنا الدافعة .. ولكن ما هي قوتنا الدافعة ؟ إنها بُؤس اليهود ؟ فمن يجرؤ على إنكار وجوده ؟ إنني سأناقش هذا كاملًا في الفصل الخاص بأسباب العداء للسامية .

كلُّنا يَأْلَفُ ظاهرة قوة البُخار التي يولدها الماء الذي يَغْلي فيرفع غطاء الغلاية ، هذه الظاهرة الخاصة بغلاية الشاي هي محاولات الصهاينة والجمعيات الصهيونية لكبح جماح العداء للسامية . ومن ثم فإنني أعتقد أن هذه القوة إذا أمكن استخدامها بإحكام فإنها كافية لدفع آلة ضخمة تحمل الركاب والبضائع .. هذه الآلة ستتخذ أي شكل مما يختاره الناس .

إنني على يقين تام أنني على حق وإن كنت أَشُكّ فيما إذا كنت سأبقى حيًّا لأرى الأيام تُبَرْهن على ذلك ، أما أولئك الذين سيكونون أول من يفتتح هذه الحركة فمن النادر أن يبقوا على قيد الحياة ليشهدوا نهايتها العظيمة ، ولكن

افتتاحها في حَدّ ذاته يكفي لِمَنْحِهم الشعور بالفخر والسعادة بالتحرر الروحيّ[١] .

لن أُطيل في وَصْف جَمَاليّ مُفَصَّل خشية إثارة الشك في أَنَّني أُؤلِّف يوتوبيا ، وعلى أيٍّ حال فإنني أتوقع أن بعض الساخرين الذين لا فِكْر لهم سوف يُصَوِّرون مشروعي بصورة هَزْلية ، وبذلك يُحَاولون إِضعاف أثره . لقد شَرَحْتُ مشروعي اليهوديّ على قَدْرٍ من الذكاء في مجالات أخرى - فكان رأيه : « أن مشروعًا تمثَّلت تفاصيله المستقبلية كأنها واقع هو مشروع طوباوي » .

وهذه مُغَالطة ، فكل وزير مالية يَحْسب في ميزانيته تقديرات لأرقام افتراضية ، ولا يعتمد فقط على الأرقام المستمدة من متوسطات عوائد السنوات السابقة ، ولا على العوائد في الدول الأخرى ، لكنه يعتمد أحيانًا على أرقام لا سابقة لها على الإطلاق ، مثال ذلك : عندما تُفْرَض ضرائب جديدة . كل من يَدرس الميزانية يَعْلم هذه الأمور . ولكن حتى لو عرفنا أن التقديرات لم تنطبق بدقة على الواقع الفعلي ، فهل يمكن اعتبار مُسَوّدَة الميزانية يوتوبيا ؟

إنَّ لي عند قرائي تَوَقُّعات أكبر ، فأنا أطلب من المثقفين الذين أخاطبهم أن يَضَعُوا جانبًا كثيرًا من الآراء التي كَوَّنُوها في الماضي ، بل إنني أذهب أبعد من ذلك لأطلب من أولئك اليهود الذين حاولوا ما في وسعهم حلّ المشكلة اليهودية أن ينظروا إلى محاولاتهم السابقة على أنها خطأ ولا فائدة منها .

ولا بد لي هنا وأنا أستعرض آرائي أن أتحفَّظ تجاه خَطَرٍ ما ، فإذا وصفتُ الأوضاع المستقبلية بحذرٍ شديد فسوف أبدو كأني أَشُك في إمكان حُدوثها ، ومن ناحية أخرى لو أنني أعلنت بتأكيد أكبر مما ينبغي فسوف أبدو كأنما أصف

---

(١) توفي هرتسل في ٢ يوليه ١٩٠٤م ، بعد أن تجاوز الرابعة والأربعين من عمره ، أي أنه أَلَّف « الدولة اليهودية » في سن الخامسة والثلاثين . (المراجع) .

وهمًا . ومن ثَمَّ فسوف أقرر بوضوح وتأكيد أنني أُؤْمن بالناتج العمليّ لمشروعي ، ولكن دون أن أَتنبأ أَنني قد اكتشفتُ الشكلَ الذي قد يتخذه في النهاية .

إنَّ الدولة اليهودية ضَرُورية ولذلك فسوف تقوم .

إنَّ الخطة قد تبدو بطبيعة الحال غير معقولة إذا حاول معالجتها شخص بمفرده ، ولكن إذا توفَّر عليها عدد من اليهود مُتَعاونين فقد تبدو معقولة تمامًا ، ولن ينطوي إنجازُها على صعوبات تستحق الذكر .

إنَّ نجاح الفكرة يعتمد فقط على عدد مُؤَيِّديها . لعل شبابنا الطموح - وقد أَصبح كل طريق أمامه للتقدم مغلقًا - يرى في هذه الدولة اليهودية مستقبلًا مشرقًا بالحرية والسعادة والشرف مفتوحًا أمامهم ، فيحرص على نشر الفكرة .

إنني أشعر أنني بِنَشْر هذا الكتيب تكون مُهِمَّتي قد انتهت ، وأنني لن أحمل القلم مرة أخرى إلا إذا دَفَعني إلى ذلك هجمات خصوم ذوي شأن ، أو إذا أصبح من الضروري التَّصَدِّي لاعتراضات غير متوقَّعة ، أو أَن أُزيل خطأً ما .

فهل أنا أُقَرِّر ما ليس واقعًا ؟ هل جئت قبل زَمَني ؟

هل مُعَاناة اليهود ليست على درجة كافية من الخطورة ؟

سوف نَرى .

إنَّ الأمر يتوقَّف على اليهود أنفسهم ، أن يبقى هذا الكُتَيِّب السياسيّ خيالًا سياسيًّا . فإذا كان هذا الجيل أَغْبَى مِنْ أن يَفْهمه على حقيقته ، فإنَّ جيلًا قادمًا أفضل وأكثر استنارة سينهض لِفَهْمه .

إنَّ اليهود الذين يُريدون الدولة اليهودية ستكون لهم ، وسوف يستحقونها .

* * *

تمهيد



من الغريب أَنَّ كثيرًا من المُتَمَرِّسين بالحياة لديهم فَهْمٌ شديدُ القُصُور لعلم الاقتصاد ، حتى أن اليهود أنفسهم يُكَرِّرون بإيمان مَزَاعم أعداء السامية قائلين : « إننا نعتمد في عَيْشنا على الشعوب المُضِيفة وإننا بدون دعمهم لنا نهلك جوعا » .

وهذه نقطة تُرينا إلى أي مدى تُضْعف الاتهامات الباطلة معرفتنا بأنفسنا . ولكن ما هو الأساس الحقيقيّ لفكرة الشعوب المُضِيفة ؟ إنها إذا لم تكن مُشتندة إلى الآراء القاصرة للفيزيوقراطيين[١] Physiocratic فَلَعَلّها تقوم على الخطأ الطفوليّ الذي يذهب إلى أن السلع تتداولها الأيدي في دورة لا نهائية .

لسنا بحاجة إلى أن نستيقظ من نوم طويل كما فعل « ريب فان وينكل » Rip Van Winkle لكي نتحقق أن العالم قد تغيّر تغيُّرًا هائلًا من خلال إنتاجه سِلَعًا جديدة .

إنَّ التقدم التكنولوجيّ الذي تَحقَّق خلال هذه الحقبة الرائعة جعل في مقدور حتى الإنسان المَحدود الذكاء أن يرى بعينيه الكَليلتين ظهور سلع جديدة حوله في كل مكان .

إن روح المغامرة هي التي خلقت هذه السلع ، أما العمل الذي يتم بدون مغامرة فهو ذلك العمل المتحجِّر الذي ينتمي إلى القرون الأولى .

ومثال ذلك : عمل الفلاح الذي يقف الآن عند النقطة التي وقف عندها أَجداده الأقدمون منذ ألف سنة .

---

(١) المذهب الفيزيوقراطي : هو مذهب في الاقتصاد ظهر بفرنسا في القرن الثامن عشر ، قال أصحابه بحرية الصناعة والتجارة وبأن الأرض هي مصدر الثروة كلها . (المترجم) .

إنَّ مظاهر الخير المَاديّ الذي نَنْعَم به الآن قد أتى به أولئك الرجال المُغَامرون ، وإنني أشعر بالخجل وأنا أُبدي هذه الملاحظة التي تعتبر من نافلة القول . وأما نحن شعب الإنجازات - كما تحكي عنا القصص المبالغ فيها - فإننا لا نحتاج إلى شعب يقيم أَوَدَنا .

إننا لا نعتمد على تَداول السلع القديمة فحسب وذلك لأننا نُنتج سلعًا جديدةً .

إننا نملك اليوم عبيدًا للعمل لديهم قُوًى خارقةٌ قضى ظهورُها على المنتجات اليدوية ، إنها الآلات الحديثة .

صحيح أننا نحتاج إلى عمال لتشغيل هذه الآلات ، ولِمِثْل هذا العمل لدينا وَفرة متميزة من الرجال . ولا يستطيع أحد أن يؤكّد لنا عدم صلاحية اليهود للعمل اليدويّ أو عدم رغبتهم فيه سوى أولئك الذين يجهلون أوضاع اليهود في كثير من بلاد أوربا الشرقية . ولكني لا أعتزم - في هذا الكُتيب - أن أَهُبَّ للدفاع عن اليهود ، فذلك أمر لا طائل من ورائه .

إن كل شيء معقول وكل شيء عاطفيّ يمكن أن يُقال دفاعًا عن اليهود قد قيل بالفعل .

فإذا كان المستمعون لا يستطيعون فهم ما قيل فكأن الواحد منا يخطب في الصحراء ، أما إذا كان المستمعون لديهم من قوة العقل وسعته ما يُمَكِّنُهم من فهم ما قيل فإن تكراره اليوم لا ضرورة له .

إنني أُؤمن بقدرة الإنسان على الارتقاء في سُلَّم الحضارة إلى أعلىٰ المستويات ولكني أرى أن هذا التقدم يسير ببطء مميت .

فإن كان علينا أن ننتظر حتى يتحقق لِسَوَادِ الناس ذلك الخير الأخلاقي

الذي يصفه « ليسنج » Lessing في كتابه « ناتان الحكيم » (NATHAN THE WISE) فإن حياتنا وحياة أبنائنا وأحفادنا وحياة أجيال أُخرى بعد ذلك قد تنقضي كلها قبل أن نصل إلى شيء .

ولكن ها هي رُوح العصر تهبُّ لنجدتنا بأسلوب مختلف . لقد أُعْطي هذا العصر نهضة رائعة من خلال منجزاته التكنولوجية ، ولكن إصلاحاته المعجزة في نفس الوقت لم تُوظَّفْ بعد في خدمة الإنسانية . فلم تَعُد المسافات عائقًا ومع ذلك ما زلنا نشكو من ضِيق المكان ، إن سفننا البخارية الكبرى تحملنا بسرعة وكفاءة إلى آفاق لم تصل إليها سفينة من قبل ، وتنقلنا قطاراتنا بأمان عبر جبال عالية كنا نتسلقها في الماضي بأقدام مرتعشة .

في الوقت الذي تَحْبسنا فيه أوروبا في « الجيتو » نسمع أن أحداثًا تجري في مَناطق من العالم لم تكن قد اكتُشِفت من قبل ، وذلك في غضون ساعة واحدة من وقُوعها . ومن ثَمَّ فإن بُؤْس اليهود يعتبر مُفَارقة تاريخية ، ليس بسبب أنه كان هناك فترة من التنوير منذ مائة سنة مَضَت فإن هذا التنوير في الواقع قد أصاب القلة المختارة .

إنني أعتقد أن النور الكهربائيّ لم يأت اختراعه لكي تتلألأ به صالونات حفنة من المُتَعَالين ، وإنما لكي نستطيع أيضًا الاستفادة من الضوء في دراسة بعض الأُمور الغامضة التي تهم الإنسانية .

إنَّ إحدى هذه المشكلات وليس أقلّها هو المسألة اليهودية . ونحن بسبيل حل هذه المشكلة لا نعمل لأنفسنا فَحَسب ، وإنما نعمل أيضًا لصالح كثير من المَقْهُورين والمضطهدين في هذا العالم .

إنَّ المسألة اليهودية لا تزال قائمة ومن الغباء إنكارها . إنها إحدى مُخَلَّفات العُصُور الوسطى التي يبدو أن الشعوب المتحضّرة ليست قادرة حتى الآن على التَّخَلُّص منها .

لقد أَبْدَتْ هذه الشعوبُ رغبةً سخيّةً لعلاجها عندما قامت بتحريرها .

إن المسألة اليهودية تُوجد حيثما يوجد عدد ملحوظ من اليهود ، وحيث تختفي هذه المشكلة فمعناها أن اليهود قد هاجروا وحَمَلوها معهم .

ومن الطبيعيّ أنَّنا نرحل إلى الأماكن التي لا نلقى فيها الاضطهاد ، حتى إذا حللنا هنالك فإن مجرد وجُودنا في حدّ ذاته يُوَلِّد الاضطهاد .

هذه هي الحال في كل بلد ، وستظل هكذا أبدًا – حتى في تلك الدول ذات المستوى الحضاريّ الرفيع مثل فرنسا – إلى أن تجد المسألة اليهودية حلًّا على المستوى السياسيّ .

إن أصحاب الحظ العاثر من اليهود يحملون الآن العداء للسامية إلى انجلترا وقد حَمَلُوه من قبل إلى أمريكا .

أعتقد أنني أفهم « العداء للسامية » ، إنها حركة بالغة التعقيد ، إنني أنظر إليها من وجهة نظر يهودية ولكن بدون خوف أو كراهية ، إنني أستطيع أن أرى العناصر التي تدخل في تركيبها . فهي مزيج من السخرية المُبتذَلة ، ومن الغيرة في المسائل التجارية العامة ، ومن التَّعصب الموروث ، وعدم التَّسامح الدينيّ ، إلى جانب التظاهر بالدفاع عن النفس .

أعتقد أن المسألة اليهودية لم تَعُد مجرّد مشكلة اجتماعية بِقَدْر ما هي قضية دينية ، ومع ذلك قد تتخذ أحيانًا أشكالًا أخرى ، إنها قضية قومية يمكن حَلُّها

فقط عندما تُعالَج كقضية سياسية عالمية تناقشها شعوب العالم المُتَحَضّر في مجلس دوليّ .

إننا شعب .. وشعب واحد .

لقد حاولنا مُخلصين في كل مكان أَن نندمج في الحياة الاجتماعية للمجتمعات المحيطة بنا وأن نُحافظ فقط على عقيدة آبائنا ، ولكن لم يُسْمَحْ لنا بذلك(١) . إننا وطنيون مخلصون ولقد ذهبنا بإخلاصنا أحيانًا إلى أقصى المدى ولكن بلا فائدة ، نضحي بأرواحنا وأَموالنا كما يفعل غيرنا من المواطنين ولكن بلا فائدة ، نكدح في سبيل رفعة شأن البلاد التي نعيش فيها في مَجالات العلوم والفنون والآداب وفي مجالات إثرائها عن طريق التجارة ، ولكن بلا فائدة .

في بعض البلاد التي عِشْنا فيها قرونًا طويلة لا يزال الناس ينظرون إلينا شَزْرًا

---

(١) من الواضح أن هرتسل هنا يتحدث عن وجه واحد من العُملة مغفلا الوجه الآخر . فهو يتحدث عن المجتمعات الأوربية وكأنها هي المَسْئولة وحدها عما حدث لليهود ، متناسيًا أن اليهود كان لهم دور في إثارة عداء تلك المجتمعات ضدهم . فتقوقع اليهود على أنفسهم ، ومحاولتهم السيطرة على اقتصاديات تلك البلدان ، والتآمر ضد بعض الأنظمة الحاكمة ، كل ذلك وغيره كان من أسباب استعداء بعض المجتمعات الأوربية ضد اليهود .

ولقد كان عباس العقاد صادقًا – عند مناقشته لدعوى اضطهاد اليهود – في تقريره أن الصهيونية هي المسئولة عن كل اضطهاد تجره على نفسها ، وأنهم يستغلون دعوى الاضطهاد لإقناع الناس بمطالبهم ، وأنه « ليس من حق صهيوني أن يشكو الاضطهاد إذا تعرض له بسوء نيته وسوء خلقه وسوء فعله ، فإنما الذنب فيه ذنبه قبل غيره ، وليس من شأن سوء النية وسوء الخلق وسوء الفعل أن يجر إلى المودة والشكر والثناء » . (عباس محمود العقاد ، الصهيونية العالمية (القاهرة : دار المعارف ، دون تاريخ) ص ٤٦ . (**المراجع**) .

باعتبارنا أجانب ، حتى أُولئك الذين لم يكن أجدادهم مواطنين في الوقت الذي كان اليهود فيه موجودين هناك يتعرضون لألوان من المُعَاناة .

إنَّ الأكثرية في أي بلد يمكنها أن تُقَرِّر مَنْ هُم الأجانب ، فالقضية هنا قضية قوة شأنها في ذلك شأن الأمور الأخرى التي تنشأ في مجرى العلاقات بين الشعوب .

إنني عندما أُقرّر هذه الحقيقة بصفتي الشخصية المجردة لا أُسَلِّم في حق من حقوقنا المكتسبة . ولكن القوة تَسْبق الحق .

هذه هي الحقيقة الواقعة في عالمنا المعاصر ، وسوف تبقى كذلك إلى أمد بعيد . لا فائدة أن نكون وطنيين مخلصين كما كان « الهجانوت » Huguenots الذين أُجبروا على الهجرة . فلو أننا فقط تُرِكْنا في سلام ...! ولكنني أظن أننا لن نُتْرك في سلام .

إنَّ الظلم والاضطهاد لن يَقْضِيا علينا . فلم يُناضل شعبٌ أو يتعرض للأَذى على هذه الأرض كما حَدَث لنا .

إن إيذاء اليهود بشكل متتابع قد قضى على ضُعفائنا ، أما الأقوياء منا فقد أَخْلصوا لجنسهم عندما تَفَشَّتْ أعمالُ التعذيب ضدهم ، وقد ظهر هذا الموقف بجلاء خلال الفترة التي أعقبت تحرير اليهود .

أما أولئك اليهود الذين اكتسبوا حظًّا وَافِرًا من العلم والثروة فقد تَخَلَّوْا نهائيًا عن الولاء لجنسهم ، فحيثما ساد استقرارنا السياسيّ لفترة من الزمن استوعبتنا المجتمعاتُ المحيطةُ بنا . وليس هذا مما يُسيء إلى سُمعتنا . ومن ثَمَّ فإن رجل الدولة الذي يرغب في أن يرى اندماج اليهود في نسيج أُمَّته عليه أن يوفر

الاستقرار السياسيّ لهم لفترة من الوقت . ولكن لن يفعل هذا أحد حتى ولو كان « بسمارك » نفسه .

إنَّ التعصُّبات القديمة ضدنا لا تزال تكمن في سويداء القلوب ، ومن يريد براهين على ذلك لا يحتاج أكثر من أن يُنصت إلى الناس عندما يتحدثون بصراحة وبساطة ، فالأمثال والقصص الخرافية جميعها مُنَاهِضة للسامية .

إنَّ أي شعب أينما كان هو طفل كبير يمكن بالتأكيد تربيتُه ، ولكن هذه التربية تستلزمُ في أحسن الظروف حقبةً طويلةً من الزمن ، نستطيع خلالها نحن – كما سبق أن ذكرتُ – أَن نقضي على مُشْكلاتنا بوسائل أُخرى ، قبل أن تكون عمليةُ التربية هذه قد أثمرتْ ثمارَها .

إنَّني أعني بالاندماج ليس فقط مجرّد التطابق الظاهريّ في الملبس والعادات والتقاليد واللغة ، ولكن أيضًا في وِحْدة الشعور والأخلاق . واندماج اليهود بهذا المَعْنى لن يتم إلا عن طريق الزواج المختلط . ولكن الحاجة إلى الزواج المختلط بين اليهود وغيرهم يجب أن يكون تعبيرًا عن شعور أغلبية السكان ، وذلك لأن مجرد الاعتراف القانونيّ به ليس كافيًا . لقد ارتكب المَجَرِيُّون الأحرار خطأً جسيمًا عندما أَباحوا الزواج المُختلط ، حيث إن واحدة من الحالات المبكرة تمثلت بشكل واضح في زواج يهوديّ مُتَنَصِّر من يهودية أصيلة . وفي نفس الوقت فإن الكفاح في سبيل إقرار الزواج المختلط قد جسَّم الخلافات بين اليهود والمسيحيين ، ومن ثَم كان سببًا في إعاقة امتزاج الأجناس أكثر مما ساعد على تحقيقه .

إنَّ الذين يرغبون بصدق أن يروا اليهود يذوبون في بوتقة واحدة مع الشعوب الأخرى ليس أمامهم غير طريق واحد ، وهو أن يتملك اليهود بادئ

ذي بدء قوة اقتصادية تُمَكّنهم من التغلب على التحيز الاجتماعي القديم الذي يُمارَس ضدهم . ولعلَّ وضع الطبقة العليا من اليهود أصدق تعبير على ذلك حيث يحدث الزواج المختلط بين أفرادها بنسبة أكبر .

لقد انقرضت بالتدريج تلك الأسرُ اليهوديةُ التي استعادت بأموالها مكانتها العالية السالفة ، ولكن أي شكل تأخذه هذه الظاهرة في الطبقات الوسطي حيث يكون اليهود طبقة برجوازية فإن المسألة اليهودية تَطرح نفسها بحدة .

إنَّ الحصول المسبق على القوة يمكن أن يكون مرادفًا للتفوق الاقتصادي الذي يُتهم اليهود خطأً بأنهم يملكونه . ومن ثَم إذا كانت القوة التي يملكها اليهود الآن تُحدِث ثورة ونقمة بين المناهضين للسامية فإن انفجارات أخرى يمكن أن تحدث إذا زادت قوة اليهود . وعليه ، فإن الخطوة الأولى تجاه استيعاب اليهود في بنية الشعوب لن تتحقق ، لأن هذه الخطوة سوف تتضمن خضوع الأكثرية من قِبَل أقلية محتقرة لا تملك قوة عسكرية ولا إدارية ، ولذلك فإنني واثق أن اندماج اليهود مع غيرهم عن طريق إحراز مَزيد من الرخاء الاقتصاديّ غير ممكن التحقيق .

ولا شك أن آرائي في هذا الصَّدد سوف تُقَابَل بالترحيب في البلاد التي تتميز بمناهضة السامية . أما في البلاد الأخرى ، حيث يعيش اليهود في بحبوحة فإنهم سوف يتلقونها برفضٍ شديد .

إنَّ إخواني في الدين الذين هم أكثر سعادة لن يُصَدّقوني حتى يتعلموا الحقيقة من درس السُّخرية باليهود ، وذلك أنه كلما طال أَمد كَبْت العداء للسامية كان انفجارها أشد شراسة .

إنَّ تسلل المهاجرين اليهود منجذبين إلى أرض ما بسبب الأمن الظاهريّ ، وارتقاءهم في السلم الاجتماعيّ بين ذويهم ، هذان العنصران معًا إذا تَضَافرا بقوة من شأنهما أن يُحْدِثا ثورة . وليس هناك أكثر بساطة ووضوحًا من هذه الخلاصة .

لأنني وصلت إلى هذه الخلاصة غير مكترث بشيء سوى البحث عن الحقيقة - فقد يعترض عليَّ اليهود الذين يَحْيون حياة مُيَسَّرة ويقاومونني .

إنَّ مثل هذه المَصَالح الخاصة التي يتشبث بها أصحابها من القلقين والهيّابين لاعتقادهم أنها في خطر - مثل هذه المصالح يمكن تجاهلها ببساطة ، لأن مصالح الفقراء والمظلومين أعظم أهمية من تلك المصالح .

غير أَنني أُريد بادئ ذي بدء أن أتجنب أي سُوء فهم قد ينشأ بصفة خاصة من فكرة خاطئة ، إن مشروعي عندما يتحقَّق قد يَمَسّ بأقل الضرر الثروات التي يمتلكها اليهود الآن ، لذلك فإنني سوف أشرح كل شيء يتصل بحقوق الملكية بتفصيل كامل .

إنَّ الأمور سَتَبْقَى على ما هي عليه طالما بقيت خطتي مجرد قطعة أدبية .

أكثر من هذا قد يعترض عَليَّ معترض بأنني قد أَعطيت ذريعة لاضطهاد السامية عندما قلت : إننا شعب .. وشعب واحد ، وأنني بذلك أقف في طريق اندماج اليهود وقد أوشك على الاكتمال ، وأَنني أُخاطر به وقد أَصبح واقعًا مُتَحقّقًا ، ذلك إذا كان لكاتب بمفرده ، أن يمنع شيئًا أو يعرضه للخطر .

هذا الاعتراض سوف يقوم بصفة خاصّة في فرنسا ، وقد يحدث في بلاد أخرى كذلك ، ولكنني سوف أَردُّ على اليهود الفرنسيين أوّلًا لأنهم يقدمون أبرز مثال على النقطة التي أُثَرْتُها .

إنَّني مهما كنت أُقدس الشخصية - سواء كانت شخصية فردية قوية كما تتمثل في السياسيين والمُخترعين والفلاسفة والقادة ، أو كانت شخصية لجماعة تاريخية من الناس كما نُطلق عليها اسم أُمَّة - مهما كنت أقدس هذه الشخصية فإنّني لا أَندم على اندثارها .

فمن كان قابلًا للفناء أو في طريقه إليه أو يجب أن يفنى فلندعه يفنى . أما القومية المتميزة لليهود فلا يمكن أن تَفْنَى ولن تفنى ولا ينبغي لها أن تفنى . إنه لا يمكن تدميرها ، لأن الأعداء الخارجيين يدعمونها ، إنها لن تُدمر لأن ألفيْ عام من المُعَاناة الرهيبة تُؤكّد ذلك ، إنه لا ينبغي تدميرها ، وأنا - كواحد من أعداد لا تُحصى من أبناء اليهود الذين لم يتطرق اليأس إلى قلوبهم - سوف أُحَاول مرة أخرى في هذا الكُتيب أن أُبَرْهن على صحة هذه المَقُولة . قد تبلى فروع كثيرة من اليهودية وتسقط ، أما الجذور فإنها تبقى ثابتة .

وإذا كان بعضُ اليهود الفرنسيين أو جميعُهم يعترضون على مشروعي مَتَعَلِّلين بقصة اندماجهم فإن جوابي بسيط .

إنَّ الأمر بِرُمَّته لا يَعْنِيهم في شيء على الإطلاق . إنهم يهود فرنسيون ، حسنًا ! فليعلموا أن هذا أمر يَخُصُّ اليهود وَحْدهم .

إنَّ التحرك تجاه تنظيم الدولة كما أقترحه لن يضير اليهود الفرنسيين - بطبيعة الحال - بأكثر مما يضير عليهم من اليهود المندمجين في شعوب أُخرى .

على العكس من ذلك فإنه سيكون لصالحهم بصفة خاصة ، لأنهم لن يَظَلُّوا قَلِقين في أوضاعهم المُتغيّرة كما يقول « دارون » ، بل سيصبحون قادرين على أن يندمجوا بسلام ، لأن العداء للسامية الذي يجري حاليًا سيكون قد اختفى

إلى الأبد . ومما لا شك فيه أن الفضل سَيُنْسَب إليهم في أنهم قد اندمجوا إلى أعماق أرواحهم طالما بَقُوا حيث كانوا ، بعد أن تكون الدولة اليهودية الجديدة بمؤسساتها المتفوقة قد أصبحت واقعًا .

أَمَّا اليهود المُنْدَمِجُون فسوف يستفيدون - ربما أكثر من المواطنين المسيحيين - من رحيل اليهود المخلصين ؛ لأَنهم سَيَتَخَلَّصون بذلك من أولئك المُضطربين سياسيًّا واجتماعيًّا الذين لا حَصْر لهم ، ومن المنافسة التي لا يمكن تجنبها من يهود الطبقة العاملة الذين يسوقهم الفقر والضغوط السياسية من مكان إلى مكان آخر ومن بلد إلى بلد آخر .

سوف تستقر هذه الطبقة العاملة الهائمة .

إنَّ كثيرًا من المواطنين المسيحيين - الذي نُطْلق عليهم أَعداء السامية - يمكنهم حينئذ أن يُظْهِرُوا مُقَاومة صُلبة لهجرة اليهود الأجانب ، أما المواطنون اليهود فلا يستطيعون أَن يفعلوا هذا رغم أن الهجرة سَتُؤَثِّر عليهم ربما أكثر من غيرهم ، فعليهم أَوّلًا قبل كل شيء تقع المنافسةُ الحادَّةُ من أفراد يَقُومون بفروع مماثلة من الصناعة ، وإضافة إلى ذلك فإنَّ هؤلاء الأفراد بهجرتهم يأخذون معهم العَدَاء للسامية حيث لم يكن موجودًا من قبل أَو يزيدون من حِدّته حيثما وُجِد .

إنَّ « المندمجين » يُعَبِّرون عن هذا الضَّيْمِ المستتر بأعمال الإحسان ، فهم يُنشئون جمعيات لتهجير اليهود المشردين .

وهناك عَكْس الصورة التي قد تبدو مضحكة لو لم تكن تتعامل مع آدميين ، فإن بعض هذه المؤسسات الخيرية أُنشئت لا لمصلحة اليهود المضطهدين ولكن ضِدّهم ، فقد أُنشئت لترحيل هذه المخلوقات التَّعيسة في أَسرع وقت

وإلى أبعد ما يمكن .

وهكذا فإن كثيرًا ممَّن يبدون على أنهم أصدقاءِ لليهود يصبحون – بالفحص الدقيق – أعداءِ للسامية من أصل يهوديّ ، لكنهم متنكرون في ثياب الإحسان .

إنَّ المحاولات الاستعمارية التي قام بها بعض المحسنين الجادين رغم أهميتها لم تنجح(١) . ولا أعتقد أن هذا الرجل أو ذاك قد أخذ الأمر مجرّد تسلية ، أو أنهم دخلوا موضوع تَهْجير اليهود الفقراء كما يدخلون حلبة سباق الخيل ، ذلك أن الأمر أخطر من ذلك وأكثر مأساوية . كان لهذه المحاولات أهمية من حيث إنها مَثَّلَتْ على نِطَاقٍ ضَيِّقٍ السوابق العملية لفكرة الدولة اليهودية .

ولعل هذه المحاولات كانت مُفِيدة من حيث إنه من أَخطائها يُمكن تَجْميع خبرات لتنفيذ الفكرة على نِطَاقٍ أوسع .

كذلك فإن لهذه المحاولات جوانبها السلبية ، فإنَّ نَقْل العداء للسامية إلى أماكن أخرى – وهو نتيجة لا يمكن تَجَنُّبها لهذا التسلل الاصطناعيّ – يبدو لي أَقل هذه الشُّرور .

والأسوأ من هذا بكثير أن النتائج غير المواتية تَلْقى شُكُوكًا على فائدة النسيج الإنسانيّ لليهود . ولكن الحجة البسيطة التالية سَتُزِيل هذه الشكوك من عُقُول الرجال الأذكياء . فإنَّ ما هو غير عمليّ أو ما لا يمكن تحقيقه على نطاقٍ

---

(١) يقصد « هرتسل » بذلك تلك المحاولات التي قام بها بعض أثرياء اليهود مثل البارون « موريس هيرش » لتمويل الاستيطان اليهودي في الأرجنتين ، والبارون « إدمون دي روتشيلد » للإنفاق على المستعمرات الزراعية في فلسطين (أحمد طربين ، مرجع سابق ، ص ٣٨) . (**المراجع**) .

ضيِّق ليس من الضروري أن يكون هذا حاله على النطاق الأَوْسع ، فمشروع صغير قد يؤدي إلى خَسارة تحت نفس الظروف التي تجعل مشروعًا كبيرًا ينجح . إنَّ النُّهير الصَّغير قد لا يستطيع مَرْكب صغير أن يَعبره ، أما النَّهر الذي يصبّ فيه فإنه يستطيع أن يحمل السفن الحديدية .

ليس هناك إنسان غَنيّ أو قويّ بالقَدْر الذي يستطيع أن ينقل أُمَّة من بيئة لتستوطن بيئةً أخرى .

الفكرة وَحْدها هي التي تستطيع ذلك ، تلك هي فكرة « الدولة » ، فهي وَحْدَها التي يمكن أن تحمل في طيّاتها القوة اللازمة لأن تفعل ذلك . لقد ظل اليهود يَحْلُمُونَ هذا الحُلْمَ المَلَكيّ خلال الليالي الطويلة من تاريخهم . « العام القادم في القدس » إنها عبارتنا القديمة . المشكلة الآن أن يتحوَّل هذا الحُلْمُ إلى واقع حَيّ .

من أجل هذا لا بد أولًا أن تُمْحَى من عقول الناس تمامًا تلك الأفكار القديمة الـمُتَضَخِّمة أو المضطربة أو المحدودة .

فربما تتصور لبعض العُقُول البليدة أن هذا النُّزُوح سيكون من مناطق مُتَحَضِّرة إلى الصحراء ، والأمر ليس هكذا ، فسوف يتم النزوحُ في قلب الحضارة ، فلن ننزل إلى مرحلة أقل بل سنرتفع إلى مرحلة أعلى ، لن نعيش في أكواخ من الطين ، بل سنبني بيوتًا جديدة أجمل وأحدث وَسَنَتَمَلَّكُها بسلامٍ ، ولن نُضيع منا ممتلكاتِنا المكتسبة بل سنحققها ، إننا سنتنازل عن حُقوقنا المكتسبة بحق من أجل حقوق أفضل .

إننا لن نُضَحّي بتقاليدنا المحببة بل سنجدها ثانية .

إننا لن نتخلى عن بيوتنا القديمة إلا بعد إعداد بيوت جديدة لنا .

إنَّ الذين سيرحلون هم أولئك الذين لَدَيهم يقين بأنهم سوف يُحَسِّنُون أحوالهم ؛ سيرحل في البداية المُعْدَمُون ، ثم الفقراء ، ثم الموفَّقون في أعمالهم وآخر الراحلين جميعًا هم الأثرياء .

فأَما الذين سيذهبون في البداية فسيرتفعون بأنفسهم إلى درجة أَعلى تساوي درجة الذين سيتبعونهم بعد فترة قصيرة ، ومن ثَمَّ فإن النزوح سيكون في نفس الوقت ارتفاعًا في سلم الطبقات .

إنَّ رحيل اليهود لن يُؤَدِّي إلى اضطراب اقتصاديّ أو أزمات أو اضطهادات .

إن البلاد التي سينزحون منها سوف تَفِيقُ على مرحلة جديدة من الرَّخاء ، فسوف يكون هناك هجرة داخلية للمواطنين المسيحيين ليحتلوا المراكز التي تركها اليهود . وسيكون التيار المُنْسَحب بطريقة تدريجية وبدون اضطراب .

وسوف تضع أول خطوة في هذه الحركة نهاية العداء للسَّامية . سوف يرحل اليهود كأصدقاء مُحْترمين ، وإذا عاد بعضُهم فسوف يُسْتَقبل بنفس الترحيب ونفس المعاملة التي تُقَدّمها الشعوب المتحضرة لجميع الزُّوار الأجانب .

إنَّ رحيلهم لن يُقَارَن بالهروب ؛ لأنه سيكون حركة بالغة التنظيم تحت مراقبة الرأي العام .

إنَّ الحركة لن تبدأ مُتَّسقة فقط مع القانون ، بل إنه لا يمكن تنفيذها بدون التعاون الصادق من الحكومات المَعْنِيَّة ، والتي ستحصل على فوائد كبرى من وَرَائها .

إنَّ ضمان نَزَاهة الفكرة وقوة تنفيذها سيتحقق من خلال إنشاء هيئة عامة سوف تسمى « جمعية اليهود » The Society of jews ، وإلى جانب هذه الجمعية سَتُوجد شركة يهودية وهي مؤسسة إنتاجية اقتصادية .

إنَّ أي فَرد يُحاول وحده أَن يقوم بهذه المهمة الكبرى لا بد أن يكون إما دعيًّا أو مجنونًا . وسوف تضمن سُمْعة الشخصيات أعضاء هذه الهيئة نزاهتها ، وسوف يضمن رأس المال الكافي للشركة استقرارها .

هذه الملاحظات التمهيدية نقصد بها مجرد إجابة سريعة على كثرة من الاعتراضات التي ستثيرها بكل تأكيد عبارة « الدولة اليهودية » في حدّ ذاتها .

ومن ثَمَّ فسوف نمضي ببطء أكثر لمواجهة اعتراضات أُخرى ، وسنشرح بالتفصيل ما قد أَلمحنا إليه حتى الآن .

وسوف نحاول لِصَالِح هذا الكُتيب ألا نجعل عَرْضه مُمِلًّا . ولكي نحقق هذا الغرض فسنجعلُه في أجزاء قصيرة موجزة .

إذا كنت أريد أن أستبدل مبنًى جديدًا بمبنًى قديم فعليَّ أن أَهْدِم قبل أن أبني ، ولذلك فسوف أُحَافظ على هذا التسلسل الطبيعيّ .

ففي الجزء الأول والعام من الكُتيب سأشرح أَفكاري ، وأُزيل كل عوامل التَّحَيُّز ، وأُحَدِّدُ الشروطَ الأساسيةَ سياسيًّا واقتصاديًّا ثم أُطَوِّر الخُطَّة .

وفي الجزء الخاص المُقَسَّم إلى أقسام ثلاثة رئيسية سوف أتعرَّض لوصف تنفيذ الخطة . هذه الأقسام الثلاثة هي : الشركة اليهودية ، والمجموعات المحلية ، وجمعية اليهود .

يجب أن تنشأ الجمعية أَوّلًا ثم الشركة بعد ذلك ، ولكن العكس مُفَضّل في

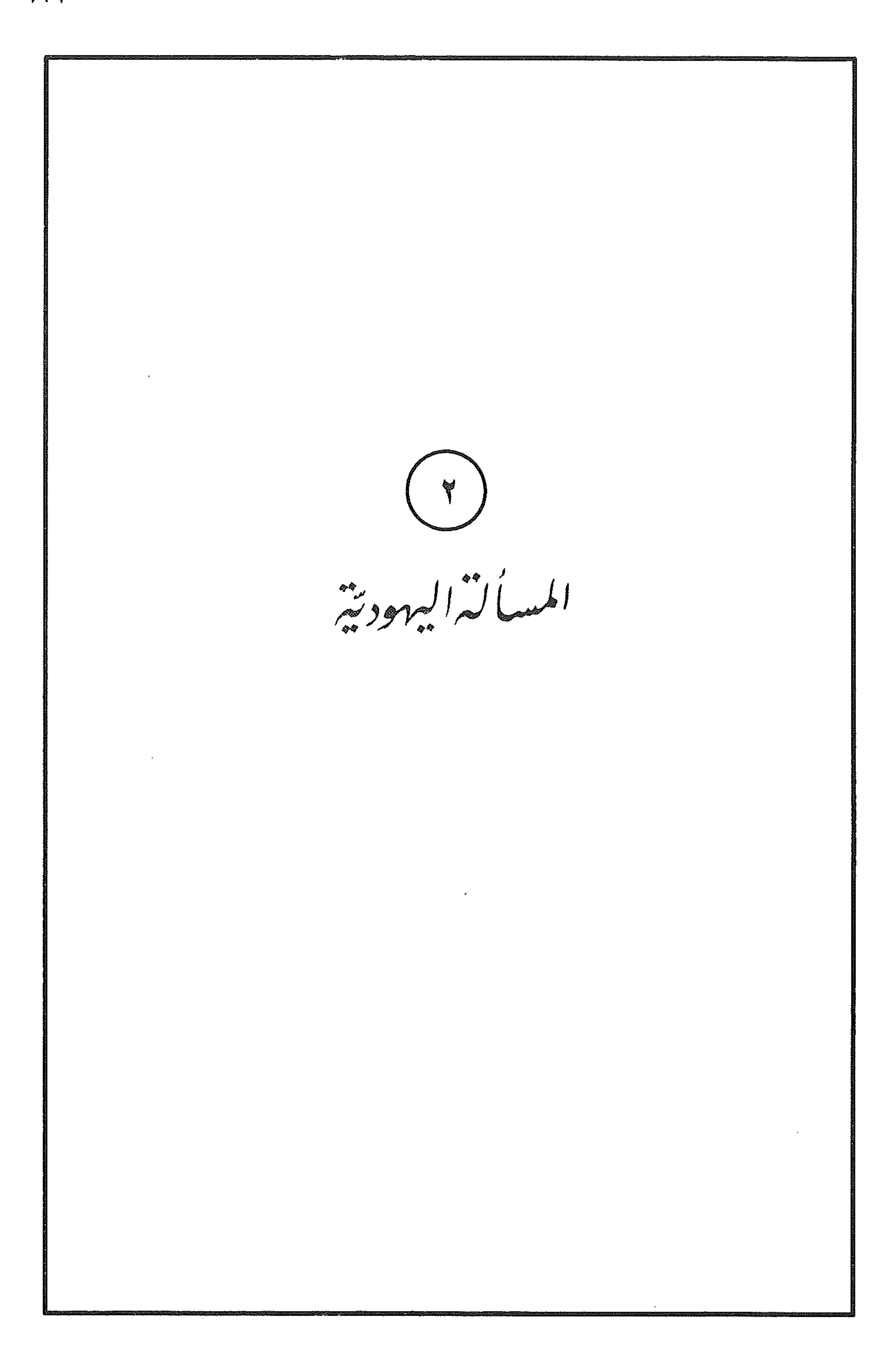
هذا السياق ؛ لأن سلامة تمويل المشروع هي - على الأغلب - التي سَتُوجد القضية ، وأي شك في هذه الناحية لا بد من إزاحته أوّلًا .

وفي الخلاصة سوف أُحاول مُواجهة أي اعتراض آخر يُمكن أن يقوم . وإنني لآمُلُ من قُرَّائي اليهود أَن يُتَابعوني بصبرٍ حتى النهاية ، وبطبيعة الحال سوف يَضَع البعضُ اعتراضاتهم في تَتَابع مُخْتَلف عن السياق الذي اخترته لدحض اعتراضاتهم . ولكن كل من يرى شُكُوكَه تنفدُ ينبغي أن يمنح إخلاصه للقضية .

رغم أنني أتحدثُ حديث المنطق إلا أَنَّني مُدْرِكٌ تمامًا أن المَنْطِق وَحْده لن يكون كافيًا . فالمَسَاجينُ الذين طال عليهم العهدُ لا يتركون سجونهم راغبين .

ولسوف نرى إذا ما كان الشبانُ الذين نحتاج إليهم طَوْعَ إرادتنا ، هؤلاء الشبابُ هم الذين سيستدرجون الشيوخَ برغبةٍ لا تُقَاوَم ، سيحملونهم إلى الأمام بأذرع قوية ، وسوف يُحَوِّلُونَ البواعثَ الفكريةَ إلى حماس .

۞ ۞ ۞ ۞



٢

المسألة اليهودية



لا أحد يستطيع أن ينكر خطورة وضع اليهود ، فحيثما يعيشون في أعداد ملحوظة تجد أنهم مضطهدون بشكل أو آخر .

لقد أصبحت مُسَاواتهم أمام القانون – التي مَنَحَها لهم التشريع – حِبْرًا على ورق ، فهم مَحْرُومون من شَغْل الوظائف ذات الأهمية النسبية سواء في الجيش أو في أي مجال عام أو خاص . بل إن المحاولات قائمة لإبعادهم عن شتى المهن أيضًا « لا تشترِ من اليهود » .

الحَمَلات عليهم في البرلمانات وفي الاجتماعات ، وفي الصحافة وعلى المنابر ، وفي الشوارع ، وخلال الرحلات ، فهم مستبعدون مثلًا من فنادق معينة .. حتى في أماكن التسلية ، كل هذا أصبح يتكرَّر كثيرًا في كل يوم .

إن أشكال الاضطهاد تختلف تبعًا للبلد أو الوسط الاجتماعي الذي تحدث فيه :

ففي روسيا : تُجمَع الضرائب من قُرى اليهود .

وفي رومانيا : يُحْكَم على بعضهم بالإعدام .

وفي ألمانيا : يتعرضون للضرب المهين .

وفي النمسا : يَسُودُ العداءُ للسامية ويُمارَسُ الإرهابُ على الحياة العامة لليهود .

وفي الجزائر : هناك مُثِيرون للفتن طوَّافون في كل مكان .

وفي باريس : تُغلق أمام اليهود ما يُطلق عليها اسم الدوائر الاجتماعية الراقية ، وهم ممنوعون من الاشتراك في الأندية .

وهكذا نجد ظِلالًا لا يُحْصَى عددُها من مَشَاعر العداء للسامية . ولكننا

لسنا بصدد تصوير مُعَاناة اليهود كحالة مأساوية ، فمن العبث إطالةُ النظرِ في التفاصيل مهما كانت مُؤْلِمَة .

لست أعتزمُ إثارة مَشَاعر الشَّفقة علينا فقد يكون في هذا غباءً وعبثًا وعملًا لا كَرَامة فيه ، ومن ثَمَّ فسوف أقتصرُ على وضع هذه الأسئلة أمام اليهود :

أليس صحيحًا أنه في البلاد التي نعيش فيها بأعداد ملحوظة فإن أوضاعنا - سواء في ذلك المُحامين أو الأطباء أو الفنيين أو المُدرسين أو المُوظفين من كل صنف - تتحول من سيء إلى أسوأ .. يومًا بعد يوم ؟

أليس صحيحًا أن حياة الطبقة المتوسطة من اليهود مُهَدَّدة تهديدًا حقيقيًّا ؟

أليس صحيحًا أن مشاعر الغَضَب لدى الرعاع مستثارة ضد أغنيائنا ؟

أليس صحيحًا أن فُقَراءنا يتحمَّلون آلامًا أعظم من غيرهم من أبناء الطبقة العاملة ؟

إنني أرى أن هذه الضغوط الخارجية تكشف عن آثَارها في كل مكان ؛ ففي طبقتنا الاقتصادية العليا تُسبب انزعاجًا ، وفي طبقاتنا المتوسطة تُسَبِّب قلقا شديدًا متصلًا ، أما في طبقاتنا الفقيرة فإنها تُحدث يأسًا مطلقًا .

في الواقع إنَّ كل شيء يتَّجه إلى خُلاصة واحدة تُعَبّر عنها بوضوح العبارة التقليدية في برلين « أيها اليهود اخرجوا » .

والآن سوف أضع المشكلة اليهودية في أكثر الأشكال تأكيدًا : هل أصبح علينا الآن أن نَرْحل ؟

وإذا كان الأمرُ كذلك فإلى أين ؟ أم لا يزالُ علينا أن نبقى ؟ وإذا كان كذلك فلأي فترة من الزمن ؟

دَعْنا أولًا ننظر في نقطة أن نبقى حيث نحن ، فهل يمكن أن نأمل في أيام أفضل ؟

هل نستطيع أن نعتصم بالصبر ؟ أن ننتظر في استسلام مطلق حتى يُبدي أمراء وشُعوب هذه الأرض استعدادًا لرحمتنا ؟

إنني أزعُمُ أننا لا يمكن أن نأمل في أي تغيير في الشعور السائد الآن ؟ ولم ذلك ؟

إننا حتى لو كنا أقربَ إلى قلوب الأمراء كرعاياهم الآخرين فإنهم رغم كل شيء لم يستطيعوا حمايتنا ، وكل ما استطاعوه هو أن يُغَذُّوا الكراهيةَ العامةَ لليهود عندما يُظْهِرون تجاهنا من الرضا أكثر مما ينبغي .

وما أعنيه بـ « أكثر مما ينبغي » في الحقيقة هو أقل ما يُطَالَبُ به كحق أي مواطن عاديّ أو جماعة عرقية . إنَّ الأمم التي يعيش في وسطها اليهود جميعها مُنَاهِضَةٌ للسامية بشكل علنيّ أو مستتر .

إنَّ الأشخاص العاديين ليس لديهم - ولا يمكن في الحقيقة أن يكون لهم - إدراك تاريخيّ ، إنهم لا يعلمون أن آثام العصور الوسطى تَعُود اليوم إلى أوربا .

إننا نحن اليهود قد صنعنا الجيتو على ما نحن عليه .

فمما لا شك فيه أننا اكتسبنا تفوّقًا ماليًا ؛ لأن ظروف العصور الوسطى دَفَعَتْنا إلى ذلك .

والآن تتكرر نفسُ العملية ، فقد أُجْبرنا مرة أخرى على العمل في البورصة حيث حُرِّم علينا أي نشاط اقتصاديّ آخر . ولأننا في البورصة فإننا بالتالي نتعرض من جديد للاحتقار .

وفي نفس الوقت نحن مستمرون في تخريج كثرة من المتعلمين الذين لا يجدون متنفسًا لهم ، وهذا يُعرض أوضاعنا الاجتماعية للخطر بنفس القدر الذي يفعله ثراؤنا المتزايد .

إنَّ اليهود المتعلمين الذين يَعُوزُهم المال سرعان ما يتحولون إلى الاشتراكية . وهكذا فإننا بالتأكيد نعاني بشدة في الصراع الطبقيّ ، لأننا نقف في أكثر المواقع تعرُّضًا بين كل من مُعَسْكَرَيْ الاشتراكيين والرأسماليين .

محاولات سابقة للحل :

إنَّ الأساليب المُصْطَنعة التي استُخْدِمَتْ حتى الآن للتغلب على مَتَاعب اليهود إما بالغة التَّفاهة كالمحاولات الاستعمارية[١] ، أو خاطئة من حيث المبدأ كالسعي لتحويل اليهود إلى فلاحين في أوطانهم الراهنة .

وما الذي يُمكن اكتسابُه بنقلِ بضعة آلاف من اليهود إلى دولة أخرى ؟

إنهم إما أن يُصَابوا بالفشل على الفور ، أو يكون النجاحُ حليفَهم ، وفي هذه الحالة فإن نجاحهم هذا سيولد العداء للسامية .

لقد ناقشنا الآن هذه المحاولات لتوجيه اليهود الفقراء إلى مناطق جديدة ، ومن الواضح أن هذا التوجيه غيرُ كافٍ ولا طائلَ من ورائه ، إذا لم يكن في الحقيقة محبطًا للنتائج المرجوة ؛ لأن ما يفعله هو مجرد إطالة الحل أو تأجيله ، ولربما يكون سببًا في تفاقم المشكلات .

إنَّ من يَسْعَى لتحويل اليهوديّ إلى فلاح يَرْتكب خطأً فاحشًا .

---

(١) المقصود هنا هو المحاولات الاستيطانية للأراضي . (المراجع) .

فالفلاح سجين فئة تاريخية ، يؤكّد هذا ملابسُه التي لم تتغير على مدى القرون في بعض البلاد ، أدواتُ عمله هي نفسُها الأدواتُ التي استخدمها أجدادُه الأقْدَمون ، نَوْرَجُهُ لم يتغير ، إنه يحمل البذور في مئزره ويقطع العشب بمنجله التاريخيّ ، ويدرس الحبوب بِمَضْربه الأثريّ .

ولكنا نعلم أنَّ هذا كله يمكن عَمَلُه بالماكينات . إنَّ المشكلة الزراعية هي مجرد مشكلة ميكنة .

إنَّ أمريكا ينبغي أن تغزو أُوربا بنفس الطريقة التي يبتلع بها كبارُ مُلاَّك الأراضي صغارهم . وهكذا فإنَّ الفلاح فئة في طريقها للانقراض . وحيثما يفرض عليه الاستمرار ، فإن ذلك يحدث لحساب مَصَالح سياسية يُجهز لخدمتها . إنَّه سَخَف وبالتأكيد مستحيل أَنْ نصنع على النمط القديم فلاحين محدثين .

ليس هناك فَرْد من الغِنَى أَو القوة بالدرجة التي يستطيع بها أن يجعل الحضارة تَتَخَلَّف خُطوة واحدة إلى الوراء .

إنَّ مُجَرَّد الاحتفاظ بالمؤسسات المنقرضة مهمَّة عسيرة ، حيث إنها تتطلب فرض جميع الإجراءات الاستبدادية لدولة يحكمها حاكم مطلق .

فهل لنا أن نَثِق في اليهود الأذكياء الذين يَرْغَبُون في أن يُصْبِحُوا فلاحين على النمط البائد ؟ إنَّني سَأَقُول لهم : هذه قَوْسٌ فلتذهبوا إلى الحرب ! ماذا ؟ .. قوس ، بينما الآخرون لديهم البَنَادق والمدافع . إنَّ اليهود تحت هذه الظروف مِن حقِّهم أن يَرْفُضوا أن يتحرَّكوا إذا حَاوَل الناسُ أن يَصْنَعُوا منهم فلاحين .

إنَّ القوس سِلاَحٌ جميل مُثير للأشجان لو أَنَّ عندي من الوقت ما يسمح بذلك ، ولكن من الإنصاف أن يوضع القوسُ في متحف .

والآن هناك بالتأكيد مناطق يذهب إليها اليهودُ اليَائسون ، أَوْ على أي حال ، لديهم الرغبة في أن يذهبوا إليها ليفلحوا الأرض . ولكن الملاحظة البسيطة تبيّن لنا أنَّ هذه المناطق مثل مقاطعة « هس » في ألمانيا وبعض المناطق الأخرى في روسيا ، هذه المناطق بذاتها هي المَنَاطق الرئيسية التي يُعَشِّش فيها العَداء للسَّامية .

إنَّ مُصْلحي العالم الذين يبعثون باليهود إلى « النورج » ينسون شخصًا بالغ الأهمية لديه الكثير لِيُدْلي به في الموضوع .

هذا الشخص هو المهندس الزراعي ، وهو أيضًا لديه الحق كل الحق ، فَضَريبة الأرض والمخاطر المُتَّصلة بالمحاصيل والضغوط من جَانب المُلاَّك الكبار الذين ينقصون من قَدْر العمل ، وبصفة خاصة المُنافسة الأمريكية ، كل هذه الظروف مجتمعة تجعل حياته بالغة الصعوبة .

إلى جانب ذلك ، فإنَّ الرسوم على الغلال المستوردة لا يمكن أن تستمر في الصعود إلى الأبد . ولا يمكن أن يُترَك صاحبُ المَعْمَل يموت جوعًا ، فإن نفوذه السياسيّ – في الواقع – في صعوده ، ولذا يجب معاملته معاملة خاصة .

كل هذه الصُّعوبات معروفة للجميع ، ولذلك فإنني أشير إليها فقط بشكل عابر .

كل ما أُريد أن أُبْرزه بوضوح هو أن المحاولات السابقة لحلّ المسألة اليهودية كانت بلا جَدوى وإن صحب أكثرَها حُسْنُ القَصْد .

ولكن لا تحويلُ المَجْرى ، ولا القَمْعُ المُصْطَنَعُ للمستوى العقلي لطبقتنا العاملة يمكن أن يتغلّب على هذه المصاعب .

إننا نبحث الآن عن الاستيعاب المفترض والملائم والمؤكد النجاح .

إننا لا نستطيع معالجة العداء للسامية بأي حيلة من هذه الحيل . فالعَداء للسامية لا يمكن أن يزول طالما بقيت أسبابه قائمة .. فهل هي قابلة للزوال ؟

أسباب العداء للسامية :

لن نتطرَّق مرة أخرى إلى تلك الأسباب التي هي نَتاج المِزَاج كالتَّعَصُّب وضِيق الأُفق ، وإنما نقتصر على الأسباب السياسية والاقتصادية وحدها .

إنَّ العداء الحديث للسامية لا ينبغي أن يختلط علينا مع الاضطهاد الديني لليهود في الزمن الماضي ، إنَّه يتخذ أحيانًا شكل التَّعَصُّب الدينيّ في بعض البلاد ، ولكن التيار الرئيسي لحركة العنف قد تغير الآن .

إنَّه يحدث نتيجة لتحرير اليهود في أكبر البلاد التي يَسُودُ فيها العداءُ للسامية . فعندما تَنَبَّهت الأُمم المتحضرة إلى لا إنسانية قوانين التمييز العنصري أَعْتَقُونا ، ولكن تحريرنا جاء مَتَأَخّرًا جدًّا فلم يَعُدْ من الممكن إزالةُ عَجْزِنا في أوطاننا القديمة .

فمن الغريب أننا ونحن في « الجيتو » قد تحولنا إلى برجوازيين ، وقد خرجنا منه فقط لندخل في منافسة ضارية مع الطبقة المتوسطة .

وهكذا وَضَعْنَا تحريرنا فجأة في وسط دائرة الطبقة المتوسطة لنتحمل ضغطًا مُزدوجًا ، أحدهما يأتي من داخلنا والآخر يأتي من الخارج .

إنَّ المسيحيين البرجوازيين لن يمتنعوا عن جَعْلِنا ضحية للاشتراكية ، وإن كان هذا لن يُحَسِّن الأُمور كثيرًا .

وفي نفس الوقت لا يمكن إلغاء حقوق اليهود في المساواة أمام القانون بعد

أن تم التسليم لهم بها . ليس لأن ذلك سيكون مُضادًّا لروح عصرنا ، ولكن أيضًا لأنه سيدفع اليهود على الفور - أغنياء وفقراء على السواء - إلى صُفوف الأحزاب المخربة . فلم يَعُدْ هناك شيء فَعَّال للإضرار بنا .

لقد كانت مُجَوهراتُنا في الماضي تُصَادَرُ . ولكن كيف يمكن الوصولُ إلى مُمتلكاتنا المنقولة الآن ؟ إنها تتألف من أوراق مطبوعة مُغْلق عليها في مكان ما بالعالم ، ربما في صَنَاديق المسيحيين .

طبعًا من الممكن الوصولُ إلى السندات والأَسهم في السكك الحديدية والبنوك والمشروعات الصناعية من كل نوع ، وذلك من خلال الضرائب ، فحيثما يُطَبَّق نظامٌ متقدِّمٌ للضرائب فإن ممتلكاتنا المتنقلة يمكن في النهاية الوصولُ إليها . ولكن هذه الجهودِ لا يمكن قَصْرُها على اليهود وَحْدَهُم ، ومهما يكن من الأمر فإنَّها حيثما وجدت فإن أَثرها المباشر سيكون كارثة اقتصادية جادة ، لن يقتصر أثرها على اليهود بأي حال ، وإن كانوا أَوَّل من يتأَثَّر بها قبل غيرهم . هذه الاستحالة في الوصول إلى اليهود هي نفسُها التي تُغَذِّي الكراهيةَ ضد اليهود وتجعلُها أكثرَ مَرَارة .

إنَّ العداء للسامية بين الشعوب يَتَعَاظَمُ يومًا بعد يوم وساعةً بعد ساعة ، وهي حَرِيَّةٌ بأَن تَتَعَاظم حقًّا ؛ لأن أسباب نُمُوِّها مستمرة في الوجود ولا يمكن إزالتُها . فسببها القديم هو فقداننا القدرة على الاندماج خلال العصور الوسطى ، أَمَّا سببها الرَّاهن فيرجع إلى ظهور أنصاف المثقفين بيننا بأعداد كبيرة ، وهؤلاء لا يجدون متنفسًا أسفلهم أو من فوقهم ، أعني أنهم لا يَجِدُون متنفسًا صحيحًا في أي اتجاه . ونحن عندما نغرق نُصبح بروليتاريا ثائرة من أتباع جميع الأحزاب الثورية ، وفي نفس الوقت عندما نرتفع ترتفع معنا القوة الرهيبة للمال .

آثار العداء للسامية :

إنَّ القهر الذي يقع علينا لا يُصْلِحُنا ، فنحن لسنا بأفضل ذرة واحدة من غيرنا من البشر العاديين . إنَّه لصحيح أننا لا نحب أعداءنا ، ولكن الذي يستطيع أن يقهر نفسه هو الوحيد الذي يَجْرُؤ على أن يلومنا لهذا الخطأ .

إنَّ القهر بطبيعته يُوَلِّد عداء ضد الطغاة ، وعداؤنا جعل الضغوط تتفاقم ، وهكذا أصبح من المستحيل أن نهرب من هذه الدائرة الأبدية . « لا » .. بعض الحَالِمين من أصحاب القلوب الرقيقة سيقولون : لا .. بل من الممكن ! ممكن من خلال الكمال المطلق للإنسانية .. فهل تستحق هذه النظرة إبراز ما فيها من حماقة عاطفية ؟ إنَّ الذي يبني أَمَلَه في إصلاح الأوضاع على الكمال المطلق للإنسانية إنما يُصَوِّر مدينة فاضلة .

لقد أَلْمَحْتُ فيما سبق إلى مسألة « إدماجنا » ، ولا أُريد أَن يُفْهم من كلامي ولو للحظة واحدة أَنني أَرغب في نهاية كهذه .

إنَّ شخصيتنا القومية مشهورة تاريخيًّا شهرة لا مِراء فيها ، وعلى الرغم من كل إِذلال فإنها أقوى من أن تجعل القضاء عليها أَمْرًا مرغوبًا فيه ..

ربما يكون في مَقْدورنا الاندماجُ تمامًا في الأجناس التي تُحيط بنا إذا شاءت هذه الأجناسُ أن تَدَعَنا في سلام لمُدَّة جِيلين . ولكنهم لن يدعونا في سَلام . إنهم قد يَتَحَمَّلُوننا لفترة قصيرة من الزمن ، ثم يبدأ عداؤهم يَتَفَجَّر مرة بعد مرة .

إنَّ العالم – بشكل ما – يَسْتَفِزُّه ازدهارُنا ؛ لأنه على مدى القرون اعتاد على اعتبارنا أَحَطَّ الفقراء . وهو بسبب جَهْلِه وضِيقِ أفقِه قد أَخْفَق في أن يلاحظ أن

الازدهار يُضعف يهوديتنا ويُطْفئ ميزاتها .

إنها الضغوطُ وحدها هي التي تدفعنا للعودة إلى جُذورنا ، إنها الكراهيةُ التي تُحيط بنا هي التي تجعلُنا غرباءَ مرةً أُخرى .

وهكذا سَواءِ رَغِبْنَا أم لم نرغبْ فإننا الآن - وسوف نظل - جماعة تاريخية ذات خصائص عامة لا يمكن أن تخطئها العين .

إننا شعب واحد ..

لقد جَعَلَنا أعداؤنا نتوَّحد في ضغينتنا ، كما حَدَث مرارًا في التاريخ .

إن الكُروب تجمعنا معًا ومن ثم تُوَحِّدُنا .. وفجأة نكتشف قوتنا .. نعم ، إننا من القوة بحيث نستطيع أن نقيم دولة .. وفي الحقيقة .. دولة نموذجية . إننا نملك كل الموارد الإنسانية والمادية اللازمة لهذا الغرض .

لعل هذا أَنْسَبُ مكانٍ لكي أستعرض ما أسميناه بشكل تقريبيّ « نسيج إنسانيتنا » ، ولكن قد لا يكون هذا العملُ مَوْضع تَقدير الآن إلى أن نضع أولًا الخُطوط العريضة للخُطَّة التي يتوقَّف عليها كُلُّ شيء .

الخُطَّة :

إنَّ الخُطَّة العامّة في جوهرها بسيطة كل البساطة كما ينبغي لها أن تكون لو أَنَّها أصبحتْ مفهومةً للجميع . فَلَمَنْحُ السيادة على جزء من الأرض يكفي للاحتياجات الحقيقية لأمَّة ، وسوف نتكفل نحن بالباقي .

إنَّ إقامة دولة جديدة ليس أَمْرًا يدعو للسخرية ولا هو مستحيل .

لقد شاهدنا في أيامنا الحالية هذه العملية تتم بين شُعوب ليست بشكل كبير من الطبقة الوسطى وإنما أكثرُ فَقْرًا وأقَلُّ تعليمًا ، وبالتالي أضعفُ منا .

إنَّ الحكومات في جميع البلاد التي انتقدت بسبب العداء للسامية سوف تكون حريصة على مساعدتنا في الحصول على السيادة التي نريدها .

إنَّ الخُطَّة ، وهي بسيطة في تصميمها مُعَقَّدة في تنفيذها ، سوف تقوم بها مؤسستان : جمعية اليهود والشركة اليهودية . سوف تقوم جمعيةُ اليهود بالأعمال التمهيدية في مجالي العلم والسياسة ، ثم تقوم الشَّركةُ اليهوديةُ فيما بعدُ بتطبيقها عمليًّا .

سوف تنظر الشركةُ اليهوديةُ في تحقيق المصالح المالية لليهود الراحلين ، وسوف تنظم الاقتصاد والتجارة في الدولة الجديدة .

لا ينبغي أن نتصور أَنَّ رحيل اليهود سيكون رحيلًا مفاجئًا ، وإنما سيكون رحيلًا تدريجيًّا ومستمرًّا على مَدَى عدّة عقود من الزمان . وسوف يرحل أولًا الأكثر فقرًا لزراعة الأرض ، وفي إطار خُطَّة سَبَقَ تصميمُها ، سوف يُنْشِئُون الطُّرق والجسور ، والسكك الحديدية والتلغراف ، واستثمار الأنهار ، وبناء مساكنهم ، وسَيَخْلُق عملُهم هذا التجارة ، وستخلق التجارةُ الأسواق ، وسوف تجذب الأسواقُ مستوطنين جُدُدًا ؛ لأن كل واحد منهم سيذهب مختارًا على حسابه الخاص ، وسيأخذ المخاطرةَ على عاتقه .

إنَّ العمل الذي سينفق على الأرض سيرفع من قيمتها ، وسُرعان ما سيدرك اليهود أن مجالًا جديدًا ودائمًا للعمل قد انفتح أمام روح المغامرة التي استُقْبِلَتْ من قبلُ بكراهية واشمئزاز .

إذا أَرَدْنَا أن نُقيم اليوم دولةً فلن نقيمها بنفس الطريقة التي كانت هي الإمكانية الوحيدة منذ ألف سنة .

إنَّه من الغَبَاء الرجوع إلى المراحل الحضارية السابقة كما يُريد كثير من الصهاينة أن يفعلوا .

لنفرض كمثال على ذلك : أنه كان علينا أن نُخْلي أرضًا من الحيوانات المفترسة ، فلن نقوم بالمهمة بنفس الطريقة التي اتَّبعها الأوربيون في القرن الخامس . فلا يصح أن نأخذ رُمْحًا وحَرْبَةً ونخرج أَفرادًا وراء الدببة ، بل ينبغي أن ننظم مجموعة قوية من الصيادين ، فنسوق الحيوانات لنجمعهم معًا في مكان واحد ثم نقذف في وسطهم بقنبلة مُدَمّرة .

وإذا أردنا أن نقوم بعمليات بناء فلن ننصب حشودًا من الأعمدة والركائز على شاطئ بحيرة ، ولكننا سنبني كما يبني الناسُ الآن . وبالتأكيد سوف نبني بأُسلوب أَجرأ وأكثر فخامة من أي أسلوب تَبَنَّاه الناسُ من قبل ، فنحن الآن نملكُ وسائلَ لم يمتلِكْها السابقون .

إنَّ المهاجرين الذين يَقِفُون في أسفل السلم الاقتصاديّ سوف يتبعهم ببطء أولئك الذين هم أفضل حالًا . هؤلاء الذين يعيشون الآن في يأس سوف يذهبون أولًا . وسوف يَليهم المُتعَلّمون الذين نُوفِّرهم بأعداد لا حَصْر لها ، والذين يُضطهدون في كل مكان .

إنَّ هذا الكُتيب سوف يفتح مُناقشة عامة حول المشكلة اليهودية ، ولكن هذا لا يعني أنَّه سيتم التصويتُ على ذلك ، فإنَّ مثل هذه النتيجة قد تُحبط الفكرة منذ البداية ، إنَّ المعارضين يجب أن يتذكَّروا أَنَّ الولاء أو المعارضة هما اختيارٌ مطلق ، فالذي لا يريد أن يأتي معنا يمكنه أن يبقى حيث هو .

دَعْ جميع الذين يريدون أن ينضموا إلينا يصطفوا خلف أعلامنا ، وأن

يُحاربوا في سبيل قضيتنا بالصوت والعلم والعمل .

هؤلاء اليهود الذين سيحتضنون فكرتنا عن الدولة سوف يرتبطون بالجمعية التي ستعطي الصلاحية للتَّباحُث والتعامل مع الحكومات باسم شعبنا . وسوف تعترف الحكومات بالجمعية باعتبارها سلطة لإقامة الدولة .

فإذا أعلنت السلطات أنها ترغب في الاعتراف بسيادتنا على قطعة من الأرض ، فإن الجمعية ستدخل في مفاوضات لتملك هذه الأرض .

وهناك الآن منطقتان موضوعتان في الاعتبار : فلسطين والأرجنتين . ففي كلا البلدين هناك تَجَارِب استعمارية مُهِمَّة ، ولكن على أساس مبدأ خاطئ من التسلل التدريجي لليهود ، وهو تسلل من شأنه أن ينتهي نهاية سيئة . إنه يستمر إلى اللحظة التي لا يُمكن تجنبها ، عندما يشعر السكانُ المحليون أنهم مهدّدون فيُجبرون الحكومة على إيقاف أي تدفق جديد لليهود ، وبالتالي فإن الهجرة لا جدوى منها ما لم تقم على أساس من هيمنة مضمونة .

إنَّ جمعية اليهود سوف تَتَعامل مع المُلاك الحاليين للأرض ، وستضع نفسَها تحت حماية القوى الأوربية ، إذا أثبتوا أنهم متعاطفون مع الخُطَّة . إننا نستطيع أن نقدم للمُلاك الحاليين للأرض مميزات هائلة ، فنأخذ على عاتقنا جزءًا من الديون العامة ، ونُنْشئ طُرُقًا جديدة للمواصلات التي يَسْتَوْجِبُها وُجُودُنا في هذا البلد ، ونقوم بأعمال كثيرة أخرى . إنَّ خلق دولتنا سيكون نافعًا لدول مجاورة ، لأن زراعة شريط من الأرض يرفع قيمة المناطق المحيطة بطرق لا حصر لها .

فلسطين أم الأرجنتين :

هل نختارُ فلسطينَ أم الأرجنتين ؟ إننا سنأخذ ما يُعْطَى لنا ، وما يختاره

الرأيُ العامُّ اليهوديُّ ، وسوف تُقَرِّرُ الجمعيةُ كِلا الأمرين .

إنَّ الأرجنتين من أكثر بلاد العالم خصوبة ، وهي تمتد على مساحات شاسعة وفيها عدد قليل من السُّكان ، وَمَناخُها معتدل .

وجمهورية الأرجنتين سوف تحصل على مكاسب كبيرة إذا تنازلت لنا عن قطعة من أراضيها . ولعل التسلل الحاليّ لليهود أثمر بعضَ الاستياء ، ومن الضَّروريّ أَن نوضح للجمهورية أن الحركة الجديدة تختلف اختلافا جوهريًّا .

أما فلسطين فإنها وطننا التَّاريخيّ الذي لا تُمْحَى ذكراه[١] ، إن اسم فلسطين في حد ذاته سيجتذب شعبنا بقوة ذات فعالية رائعة . فإذا منحنا جلالةُ السلطان فلسطين سنأخذ على عاتقنا بالمقابل تنظيم مالية تركيا .

ومن هنا سوف نُشَكِّل جزءًا من استحكامات أُوربا في مواجهة آسيا كموقع أمامي للحضارة في مواجهة البربرية . وعلينا - كدولة طبيعية - أن نبقى على اتصال بكل أوربا التي سيكون من واجبها أن تضمن وجُودنا .

إنَّ ملاذات العالم المسيحيّ يجب صِيانَتُها بتحديد مكانة إقليمية إضافية لها مما هو معروف في قانون الأمم .

وعلينا أن نُشَكِّلَ حَرَسَ شَرَفٍ حول هذه الملاذات بغرض تحقيق هذا الواجب فيما يختص بوجودنا . وسيكون حَرَسُ الشَّرَفِ هذا هو الرمز العظيم

---

(١) هناك دراسة علمية للمفكر العربيّ جمال حمدان انتهى فيها إلى أن يهود العالم مختلطون في جملتهم اختلاطًا بَعُدَ بهم عن أية أصول إسرائيلية فلسطينية قديمة . ومن هنا فلا جناح علينا إذا نحن قررنا في النهاية أن اليهود اليوم ليسوا من بني إسرائيل ، وأن هؤلاء شيء وأولئك شيء آخر إنثروبولوجيًا ، ولا رابطة بين الطرفين إلا الدين والدين فقط » انظر : جمال حمدان « اليهود إنثروبولوجيًا » (القاهرة ، دار الكاتب العربيّ للطباعة والنشر ١٩٦٧) ، ص ٩٠ (المراجع) .

لحلّ المشكلة اليهودية بعد ثمانية عشر قرنًا من مُعَاناة اليهود .

الحاجة ، الوسيلة ، التجارة :

قلت في الفصل قبل الأخير « إن الشركة اليهودية سوف تقوم بتنظيم المهن والتجارة في الدولة الجديدة » وهنا أُضيف بعض ملاحظات لهذه النقطة : إنَّ مشروعًا كمشروعي هذا عُرضة لِمَخَاطر مُهْلكة إذا عَارضه أولئك الناس « العمليون » ، وأُوَضِّحُ هنا أن الناس « العمليين » كقاعدة ليسوا أكثر من أولئك الناس الذين تَحَكّم فيهم الروتين اليومي ، فلا يستطيعون الخروج من الدائرة الضيقة للأفكار العتيقة . وفي نفس الوقت فإن آراءهم المناقضة ذات وزن كبير ، ويمكن أَن تُسَبّب ضررًا بالغًا لمشروع ناشئ ، إلى أن يصبح هذا الشيء الجديد من القوة بحيث يستطيع أن يقذف بالرجال « العمليين » وأفكارهم العَفِنَة إلى الريح .

كان بعض الناس « العمليين » خلال الفترة البدائية لإنشاء سكك حديد أُوربا – يعتقدون أنه من الغباء بناء خطوط بعينها « لأنه لا يوجد من المسافرين من يكفي لملء عربة بريد ، إنهم لم يفهموا الحقيقة – التي تبدو لنا الآن واضحة جلية – وهي أن المسافرين لا يُنتجون السكك الحديدية وإنما على العكس من ذلك ، السكك الحديدية هي التي تُنتج المسافرين ، آخذين في الاعتبار الاحتياجات الكامنة بطبيعة الحال .

إنَّ استحالة فهم كيفية إيجاد المِهن والتجارة في دولة ناشئة لم يتم الحصول عليها بعد أو زِرَاعتها – يمكن تصنيفها مع تلك الشكوك التي ساورت الأشخاص « العمليين » فيما يتعلق بالحاجة إلى السكك الحديدية .

* * *



٢

الشركة اليهودية



لعلهم يقولون « مع التسليم بأن الظروف الحالية لليهود في كثير من المناطق لا تُطَاق ، وأنها تزداد سوءًا يومًا بعد يوم ، ومع التسليم بوجود رغبة في الهجرة ، ومع التسليم حتى بأن اليهود يهاجرون بالفعل إلى الدولة الجديدة ؛ فكيف سيكسبون عيشهم هناك ، وماذا سَيَكْسِبُون ؟ وماذا سيعيشون عليه وهم هناك ؟ إنَّ أعمال أعداد كبيرة من الناس لا يمكن تنظيمها بطريقة صناعية بين يوم وليلة » .

على هذه الاعتراضات أَرُدُّ قائلًا : ليس لدينا أقل نية لتنظيم المهن تنظيمًا صناعيًا ، وبالتأكيد لن نحاول ذلك في يوم . ولكن على الرغم من أن تنظيمها قد يكون مُستحيلًا فإن ترويجها ليس كذلك ، وكيف يمكن تشجيع التجارة ؟ بواسطة الحاجة .. الحاجة يُمكن إدراكُها ، الوسيلة تُخلق ، والتجارة تنشئ نفسها .

فإذا كان هناك حاجة حقيقية ومُلِحّة بين اليهود لِتَحْسين مكانتهم ، وإذا خلقت الوسيلة - وهي الشركة اليهودية القوية بالقدر الكافي - فإن التجارة سَتُوجِد نفسَها بوفرة في الدولة الجديدة .

هذا - بطبيعة الحال - افتراض مثلما كان تطوير السكك الحديدية افتراضًا في الثلاثينيات[١] .

ولقد أُقيمت السكك الحديدية كلها ؛ لأن أفكار الرجال استطاعت - لِحُسْن الحظ - أن تحملها بعيدًا عن شُكوك الرجال « العمليين » وعَرَبات بريدهم[٢] .

خطوط رئيسة :

لقد صُمِّمت الشركة اليهودية على أساس أن تكون إلى حدٍّ ما شركة كبرى

---

(١) المقصود هنا ثلاثينيات القرن ١٩ . (**المراجع**) .

(٢) لوحظ أن الأسطر الثلاثة الأخيرة قد حذفت من الترجمات الأخرى اللاحقة . (**المراجع**) .

للحصول على الأرض ، ويُمكن أن تُطلق عليها « الشركة اليهودية القانونية » رغم أنها لا تستطيع أن تُمارس سُلطة سِياديّة . إنَّ مهمتها مهمَّة استعمارية خالصة .

سوف تُؤَسَّس الشركة كشركة مُساهمة خاضعة للقضاء الإنجليزيّ ، مُصَاغة وَفْقًا للقانون الإنجليزيّ وتحت حماية انجلترا ، وسيكون مركزها الرَّئيسيّ في لندن . ولا أستطيع الآن أن أُحَدِّد مِقدار رأس مال الشركة ، فسوف أترك هذا التَّقدير لِمُمَوِّلينا الكثيرين .

ولكن لكي نتجنب الإبهام فسوف أَضع قيمته في إطار مبلغ أَلف مليون مارك (أي حوالي خمسين مليون جنيه إسترليني أو ٢٠٠ مليون دولا أمريكيّ) ، ربما أكثر أو أَقلّ من هذا المبلغ . إن شكل المساهمات التي سَنُوضّحها فيما بعد ، هي التي سَتُحَدِّد أي قَدْر من هذا المبلغ الكليّ ينبغي تحصيله دفعة واحدة .

إنَّ الشركة اليهودية مؤسسة ذات صِفة مَرْحليّة ، وهي مشروع تجاريّ كامل ، ويجب التمييز باهتمام بينها وبين جمعية اليهود .

على الشركة اليهودية - بالدرجة الأولى - أن تُعْنَىٰ بتحقيق المصالح الخاصَّة التي سَيُخَلّفها اليهود الراحلون ، وسوف تمنع الأساليب التي تتبعها حدوث الأزمات ، وتُحافظ على ممتلكات الناس ، وتُيَسِّر الهجرة الداخلية للمواطنين المسيحيين التي أشرتُ إليها من قبل .

السِّلع غير القابلة للنَّقل :

إنَّ السلع غير القابلة للنقل والتي نأخذها في الاعتبار هي المباني والأرض ، والعلاقات التجارية المحلية . ولن تأخذ الشركة اليهودية - في بادئ الأمر - على عاتقها أكثر من المفاوضات الضرورية لبيع هذه السلع .

هذه المبيعات اليهودية سوف تتم في بادئ الأمر بحريّة وبدون أي هبوط شديد في الأسعار . وسوف تُصبح فروع الشركة اليهودية المنشأة في مختلف المدن هي المراكز الرئيسية لبيع ممتلكات اليهود ، وستتقاضى على ذلك عمولة نظير الإجراءات بما يحفظ لها استقرارها الماليّ .

والآن ، فإن تطور هذه الحركة قد يُؤَدِّي إلى هُبوط كبير في أَسعار الأملاك العقارية ، وقد يستحيل في آخر الأمر إيجاد سوق لها ، عندئذ ستدخل الشركة في فَرْع آخر من فروع نشاطها ، فتتولى إدارة الممتلكات المهجورة إلى وقت تستطيع فيه أن تبيعها بأثمان معقولة . فتجمع إيجارات المنازل وتُؤَجِّر الأراضي . وتُعيِّن مديرين للأعمال ، حيثما يتطلَّب الأمر إشرافًا ، وحَبَّذَا أن يكونوا أيضًا من المستأجرين .

وسوف تَسْعى الشركةُ جاهدةً في كل مكان لتسهيل تمليك الأراضي بواسطة مُسْتأجريها الذين هم مسيحيون . وبالتأكيد سوف تحل بالتدريج محلّ موظفيها بدائل من المسيحيين كالمحامين وغيرهم . ولن يُصْبح هؤلاء خُدَّامًا لليهود بل المقصود بهم أن يكونوا « وكلاء »[1] أحرارًا للسكان المسيحيين ، حتى يتم تنفيذ كل شيء على أساس من العدل والإنصاف والاعتدال ، ودون تعريض مصالح الشعب الداخلية للمَخاطر .

وفي نفس الوقت ستقوم الشركة ببيع العقارات أو استبدالها ، فالبيت الذي

(١) آثرنا كلمة « وكلاء » ترجمة للعبارة Controlling bodies » لأنها في هذا السياق تؤدي المعنى الذي قَصَده المؤلِّف على الأرجح ، ويعزّز هذا آخر تنقيح للترجمة الإنجليزية نشرته شركة بوقر سنة ١٩٨٨ بنيويورك فقد وَرَدت بدلًا من هذه العبارة كلمة Agents . (**المترجم**) .

تأخذه سوف تقدّم بدلًا منه في الدولة الجديدة ، وأرضًا بدل الأرض في الدولة الجديدة .

كل شيء سَيُنْقَل إلى الأرض الجديدة – ما أمكن ذلك – بنفس حالته التي كان عليها في الأرض القديمة .

هذا النقل سوف يكون مصدرًا للربح عظيمًا ومُسَلَّمًا به للشركة .

و « هناك » ستكون البيوت الممنوحة على سبيل التبادل أَحْدَث وأجمل ، وستكون مُجَهَّزة تجهيزًا مُريحًا ، وستكون الضِّياع هناك أعلى قيمة من تلك الضِّياع المهجورة ولكنها سَتُكَلِّف الشركة أقل نسبيًا ، لأن الشركة قد اشترت الأرض بأسعار رخيصة .

شراء الأراضي :

إنَّ الأرض التي ستستحوذ عليها جمعية اليهود بالقانون الدوليّ لا بد – بطبيعة الحال – أن يكون الحصول عليها بطريقة خاصة . أما الخطوات التي اتخذها بعضُ الأفراد بالنسبة لمستوطناتهم الخاصة فإنَّه لا يقع في إطار هذه العملية العامة .

تحتاج الشركة إلى مساحات كبيرة من الأرض لاحتياجاتها الخاصة واحتياجاتنا ، وهذه المساحات يَجب حيازتُها عن طريق الشراء المركزيّ . وسوف تتفاوض الشركة بصفة مبدئية لامتلاك السيطرة المالية ، واضعةً أمام ناظرها الهدف الكبير وهو حيازة الأرض « هناك » دون أن تدفع ثمنًا أعلى مما ينبغي ، وبنفس الطريقة ، أن تبيع « هنا » دون أن تَقْبَل ثمنًا أقل مما ينبغي .

ولا يجب أن يُفهَم من هذا أننا سنفرض أسعارًا للأراضي ؛ لأن الشركة

سوف تقوم بتقدير قيمة الأرض خلال تنظيمها للاستيطان بالتعاون مع جمعية اليهود ، وسوف تُعْنَىٰ الأخيرة بألا يصبح المشروع على غرار « بنما » وإنما على غرار السويس[(١)] .

سوف تبيع الشركة قطع الأرض للمباني بأثمان رخيصة لموظفيها ، وسوف تَسْمَح لهم بسلف لبناء مساكنهم ، ثم تقوم بخصم أقساطها من مُرتباتهم ، أو تضعها في حساباتهم كمكافآت مالية . وسوف يُشَكِّل هذا نوعًا من التعويض عن خدماتهم ، بالإضافة إلى الامتيازات الأخرى التي يتوقعونها .

إنَّ الأرباح الهائلة الناتجة من المُضَاربة في الأرض ستذهب إلى الشركة ، التي من المفروض أن تستقبل هذه الأقساط اللانهائية مقابل تحملها لمخاطر المشروع .

فعندما ينطوي مشروع ما على مخاطرة ، فإن الفوائد يجب أن تُمْنَح بسخاء لأولئك الذين تحمَّلوا المُخَاطرة . ولكن لن يُسْمَح بالفوائد تحت أي اعتبار آخر .

إن أَخلاقيات المال تتألف من العلاقة المتبادلة بين الربح والمخاطرة .

المباني :

سوف تقوم الشركة بمُقَايضة البيوت والعقارات ، ويجب أن يكون من الواضح لكل من يُلاحظ ارتفاعًا في قيمة الأرض من خلال زراعتها ، أن الشركة ينبغي أن تكسب من أملاكها العقارية . ويمكن مشاهدة هذا على

---

(١) لعله يقصد ملكية أسهم قناة السويس وإدارتها من قِبل هيئة أجنبية في حماية الاحتلال الإنجليزيّ للأرض . (المترجم) .

أحسن مثال في حالة قطع الأراضي المبنية في المدن والريف . فالمناطق التي لم تُشَيَّد بها مبان يرتفع ثمنها عاليًا بسبب زراعة الأرض المحيطة بها .

إنَّ الرجال الذين قاموا بتوسيع باريس عملوا مُضاربات ناجحة في الأراضي كانت عبقرية في بساطتها ، فبدلًا من بناء مبانٍ جديدة مُلاصقة مباشرة لآخر منازل المدينة ، اشتروا قطعًا من الأرض المجاورة وأخذوا يبنون على أطراف هذه الأراضي .

هذا الترتيب العكسيّ في البناء رَفَع قيمة الأرض بسرعة غير عادية . وبعد أن انتهوا من بناء الحلقة الخارجية بدءوا يبنون وسط المدينة على قطع الأرض التي أصبحت ذات قيمة عالية بدلًا من بناء المنازل على التوالي ، فهل ستقيم الشركة مَبانيها بنفسها أم تُفَوِّض في ذلك معماريين مستقلين ؟ إنها تستطيع وستفعل الاثنين معًا . إنها – كما سنوضح فيما بعد – تملك احتياطيًّا هائلًا من قوة العمل لن تقوم الشركة بتسخيرها ، ولكن ستحولها إلى ظروف معيشية أسعد وأبهج ، وهي على أي حال لن تكون غالية .

وعندما يختار علماء الجيولوجيا مواقع المدن سيكونون قد بَحَثوا في توفير مواد البناء . فماذا سيكون عليه مبدأ البناء ؟

مساكن العمال :

إنَّ مساكن العمال (التي تشمل مساكن جميع العمال) سوف تبنى بمخاطرة الشركة وعلى نفقتها . ولن تكون مثل سَكَنات العمال الكئيبة في المدن الأوربية ، ولا تلك الصفوف التعيسة من الأكواخ المحيطة بالمصانع . إنها – بالتأكيد – ستبدو في مظهر مُوَحَّد ؛ لأن الشركة ينبغي أن تَبني بتكاليف

رخيصة حيثما توفرت مواد البناء على نطاقٍ واسع ، ولكن المنازل ستبنى منفصلة بعضها عن بعض مزودة بحدائق صغيرة ، وإنَّما سوف تَتَوَحَّدُ في مجموعات جذابة بِكُلّ منطقة .

إنَّ التشكيل الطبيعيّ للأرض سوف يُثير إبداع مِعْمَارِيِّينا الشباب الذين لم يَطْغ الروتين على أفكارهم بَعْد ، وحتى لو أن الناس لم يدركوا الفحوى الكلية للخُطَّة ، فإنهم على أي حال سَيَشْعرون بالارتياح في مجموعات منازلهم غير المتلاصقة . وسوف يكون في استطاعتهم رُؤية المعبد من مسافات طويلة ، فالمعبد هو عقيدتنا التليدة التي جمعتنا معًا .

وسيكون هناك مدارس للأطفال مُضيئة جذابة وصحيّة ، وتُدار على أحدث النظم المعتمدة . وستكون هناك مدارس للعمال تعلمهم المعارف التكنولوجية المتقدمة ، وتجعلهم على دراية تامة بعمل الماكينات .

وسيكون هناك أماكن للتسلية ، وسوف يكون المجتمع اليهوديّ مسئولًا عن إدارتها إدارة سليمة . على كل حال إننا حتى الآن لا نزال نتحدث عن المباني فقط ، ولم نتطرق إلى ما سيجري في هذه المباني .

لقد ذكرتُ أن الشركة سوف تبني مساكن العمال بتكلفة قليلة ، وهذه ستكون رخيصة ، لا لوفرة مواد البناء فقط ، وليس لأن الشركة هي المالكة لأراضي البناء ، ولكن أيضا لأن عمال البناء لن يُدْفَع لهم أجر .

إنَّ الفلاحين الأمريكيين يعملون بنظام المساعدة المتبادلة في بناء بيوتهم ، وهذا النظام الوِدِّيّ الطفوليّ – والذي هو غير مُلائم مثل المباني التي أقامها – يُمكن تطويرُه على أسس أفضل .

العمال غير المهرة :

ينبغي على عُمَّالنا غير المهرة الذين سيأتون في البداية من مصدرين كبيرين في روسيا ورومانيا - بطبيعة الحال - أن يُسَاعد بعضُهم بعضًا في بناء منازلهم . وسيكون عليهم في بادئ الأمر أن يبنوا بالخشب ؛ لأن الحديد لن يكون متوفرًا في هذه المرحلة المبكرة . هذه المباني المؤقّتة التي لا تفي بالغرض تمامًا سوف يحل محلها فيما بعد مساكن أرقى .

إنَّ عمالنا غير المهرة سوف يقومون أولًا بطريقة تعاونية ببناء هذه البيوت للإيواء ، ثم تنتقل إليهم ملكيتها بصفة دائمة عن طريق عملهم ، ليس مباشرة ولكن بعد سنوات ثلاث من السُّلوك الحَسَن .

بذلك نضمن رجالا نشطين وبارعين . هؤلاء الرجال سوف يتم تدريبهم عمليًّا للحياة خلال العمل سنوات ثلاث تحت نظام جيد الانضباط .

ذكرتُ سابقا أن الشركة لن تدفع أُجورا لهؤلاء العمال . فعلى أي شيء يقيمون أَوَدَهُمْ ؟

بصفة عامة أنا لستُ من أنصار نظام التعامل بالأشياء العينية Truck System [(١)] ولكن لا بد من تطبيقه في حالة هؤلاء المستوطنين الأوائل .

فستوفر لهم الشركة سُبُلَ العيش من وجوه عدة ، بحيث إنها قد تأخذ على عاتقها إعالتهم . وعلى أي حال فإن نظام الدَّفع بالأشياء العينية سوف يطبق

---

(١) Truck system هو نظام قديم في أوربا يتمثل في دفع أجور العمال سلعًا أو مواد عينية بدلًا من النقود (المترجم) .

فقط خلال السنوات القليلة الأولى ، وسوف يفيد العمال بتجنيبهم استغلال صِغار التجار ومُلاك الأراضي وغيرهم .

وهكذا سوف تجعل الشركة منذ البداية أولئك الذين اضطرتهم الظروفُ القاسيةُ « هنا » أن يكونوا باعةً جَائلين أو طَوَّافين على المنازل – من المُسْتَحيل عليهم أن يُعيدوا الحياة لمثل هذه المهن « هناك » . وستمنع الشركةُ أيضا من الهجرة مدمني الخمر والعابثين .

إنَّه لن يكون هناك أُجور تُدْفَع مُطلقًا خلال الفترة الأولى من الاستيطان ، ولكن من المؤكد أنه سَيَكُونُ هناك أجْرٌ للعمل الإضافيّ .

العمل اليومي سبع ساعات :

سيكون النظام المُتَّبع هو « سبع ساعات عمل في اليوم » . ولكن هذا لا يعني أن قطع الأخشاب والحَفْر وقَطْع الصخور ومئة من الأعمال اليومية الأخرى ستتم بالضرورة خلال الساعات السبع فقط . بالتأكيد لا .. إنما سيكون هناك أربع عشرة ساعة من العمل اليوميّ على أساس تقسيم العمل إلى ورديات كل وردية من ثلاث ساعات ونصف .

وسيتم تنظيم هذا بأسلوب عسكريّ . وسيكون هناك أوامر ، وتَرْقيات ومَعَاشات ، وهذه سوف نشرحها فيما بعد .

إنَّ الرجل صحيح البدن يستطيع أن يقوم بكثير من العمل المركز في فترة الساعات الثلاث والنصف ، وبعد فترة زمنية مساوية يُخَصِّصُها العامل للراحة ولأُسرته ولتعليمه الموجه ، سوف يعود مرة أخرى للعمل نشيطًا . مثل هذا النظام من العمل يَصْنَع المعجزات . وهكذا فإن نظام السَّبع ساعات عمل في

اليوم ينطوي في حقيقة الأمر على أربعة عشر ساعة من العمل المشترك ، ولكن لا أكثر من هذا .

إنني أعتقد أنه في الإمكان إدخال نظام السبع ساعات عمل بنجاح ، ومُحاولات تطبيق هذا النظام في بلجيكا وانجلترا معروفة للجميع .

وقد أَعلن بعضُ رجال الاقتصاد السياسيّ التَّقدُّميين ممن درسوا هذا الموضوع أن خمس ساعات عمل في اليوم تفي بالغرض تمامًا .

وعلى أي حال فإن جمعية اليهود والشركة اليهودية سوف تقومان بتجارب جديدة على نطاق واسع ستفيد الأمم الأخرى في العالم .

وإذا ثبت أن نظام السبع ساعات عمل في اليوم نظام عمليّ فسوف يُطَبَّق في دولتنا المستقبلية كنظام قانونيّ معتمد . في غضون ذلك سوف تسمح الشركة دائمًا لموظفيها بالعمل سبع ساعات في اليوم ، وسوف تكون قادرة على تنفيذ ذلك . وستكون السَّبع ساعات عمل دعوة لاستجلاب شعبنا من أنحاء المعمورة ، ويجب أن يأتي الجميعُ مختارين ، فأرضُنا هي أرضُ الميعاد .

إنَّ من سيعمل أكثر من سَبْع ساعات في اليوم سيحصل على أجر إضافيّ . وإذا رأى أن جميع احتياجاته مُتوفِّرة وأن أفراد أسرته غيرَ القادرين على العمل حاجاتُهم مُيَسَّرة من خلال المؤسسات الخيرية المركزية التي انتقلتْ ، فإنه يستطيع أن يُوَفِّر قليلًا من المال .

إنَّ عدم التَّبذير – الذي هو خاصيةٌ من خصوصيات شعبنا – ينبغي تشجيعُه تشجيعًا كبيرًا ؛ لأنه بالدرجة الأولى سوف يُيَسِّر ارتفاع الأفراد درجاتٍ أعلى ؛ ولأن المال المدخر ثانيًا سوف يوفر احتياطًا ماليًا ضخمًا للقروض المستقبلية .

وسوف يُسْمَح بالأجر الإضافيّ فقط على أَساس شهادة طبية ، ولا ينبغي أن يزيد عن ثلاث ساعات في اليوم .

وسوف يتدفق رجالنا على العمل في وطننا الجديد ، وسوف يرى العالم حينئذ أي شعب كادح نحن .

لن أصف الطريقة التي سيتم بها نظام التَّعامل العَيْنيّ ، ولن أتعرض للتفاصيل التي لا تُحْصَى لأيّ عملية خشية أن يختلط الأمرُ على القراء .

ولن يُسْمَح للنساء بالقيام بأي عمل شاقّ ولا أن يعملوا وقتًا إضافيًّا .

سوف تتحرَّر النساء الحوامل من جميع الأعمال ، وسوف يُزَوَّدْنَ بالأطعمة المُغَذِّية ، فنحن نريد أن تكون أجيالنا القادمة قوية سواء من الرجال أو النساء . وسوف نُعَلِّم الأطفال كما نريد منذ البداية ، ولكنني لن أدخل في تفصيل ذلك أيضًا .

إنَّ كلامي عن مَسَاكن العمال ، وعن العمال غير المهرة وأُسلوب حياتهم ليس من قبيل اليوتوبيا ، كما أن بقية مشروعي ليست كذلك . فكل ما تحدثتُ عنه قد وُضع بالفعل موضع التجرِبة ، وإن كان على نطاقٍ صغيرٍ جدًّا ، لكنه لم يلاحظ أو يفهم .

كان « نظام المساعدة بالعمل » Assistance par le travail كما عرفتُه وفهمتُه في باريس كان ذا فائدة كبيرة لي في معالجة المشكلة اليهودية .

التخفيف بالعمل :

إنّ « نظام التخفيف بالعمل » المُطَبَّق حاليًّا في باريس وفي مُدن عديدة أُخرى بفرنسا ، كما في انجلترا وسويسرا وأمريكا ، هو شيء صغير جدًّا ولكنه

قَابِل لأكبر توسُّع .

فما هو « مبدأ التخفيف بالعمل » ؟ إنه يتلخص في توفير عمل سهل غير فنيّ للأشخاص المعوزين ، مثل قطع الأشجار ، أو تقطيع الخشب المستخدم في إشعال الأفران في منازل باريس . إنه نوع من عمل السُّجون قبل وقوع الجرائم ، وهو يتم دون إساءة للسمعة .

إنه وسيلة لمنع الرجال من ارتكاب الجرائم بسبب الحاجة ، وذلك عن طريق توفير العمل لهم واختيار قابليتهم للقيام به .

ولا ينبغي أن يُسْمَح للجوع بأن يدفع الرجال إلى الانتحار ، لأن هذا الانتحار هو أكبر عار للحضارة التي تَسْمَح للرجال الأغنياء أن يقذفوا بِقِطَعِ اللحم إلى كلابهم .

وهكذا فإنَّ التخفيف بالعمل لكل إنسان عملٌ . ولكن في النظام عيب كبير ، فليس هناك طلب كبير على الإنتاج الذي يحتاج لتوظيف عمال غير مهرة . ومن ثم فهناك خسارة لمن يوظفونهم .

صحيح أن المؤسسة هي مؤسسة خيرية ، ولذلك فهي مستعدة للخسارة ، ولكن هنا يكون الإحسان ، فهو يقع في الفرق بين الأجر المدفوع وبين القيمة الحقيقية للعمل .

فبدلًا من إعطاء الشحاذ (درهمين) ، فإن المؤسسة تمده بالعمل الذي تخسر فيه (درهمين) ولكنها في نفس الوقت تُحَوِّلُ الشَّحاذ عديم القيمة إلى كاسب للرزق أمين .

قد يكون الشخص قد كَسَب مثلًا فرنكًا فرنسيًّا ونصف الفرنك ، بينما هو

يستحق على عمله عشرة سنتيمات ! معنى هذا أن المُتَلَقِّي للإحسان دون إهانة قد زَاد مكسبه خمسَ عشرة مرة ! بمعنًى آخر : قد تُنْفِق المؤسسة خمسة عشر ألف مليون بدلًا من ألف مليون .

ستخسر المؤسسة بالتأكيد عشرة سنتيمات ، ولكن الشركة اليهودية لن تخسر ألف مليون ، وإنما ستحصل على أرباح طائلة من هذا الإنفاق .

وهناك جانب آخر أخلاقيّ ، فالنظام الصغير للتخفيف بالعمل الموجود حاليًا ، يُحافظ على الاستقامة عن طريق الصناعة ، حتى يَحين الوقتُ الذي يجد فيه الرجل الخالي من العمل عملًا مناسبًا لإمكاناته ، إما في حرفته القديمة أو في حرفة جديدة . ويسمح للرجل بإجازة كل يوم لبضع ساعات لغرض البحث عن عمل ، وتلك مُهمّة تساعده فيها المؤسسة .

والعيب في هذه التنظيمات الصغيرة حتى الآن ، هو أنها حُرِمَت من الدخول في مُنافسات مع تجار الأخشاب وغيرهم . فهؤلاء ناخبون وقد يعترضون ، وقد يكونون على حقّ في اعتراضهم ، كما أنها مُنعت من منافسة سجون العمل التي تديرها الدولة ؛ لأن على الدولة أن تشغل المجرمين وتطعمهم .

في الواقع لا يوجد في المجتمعات القديمة إلا مكان صغير لتطبيق ناجح لنظام « التخفيف بالعمل » . ولكن له مكان في المجتمع الجديد . فعلاوة على كل شيء ، نحتاج إلى أعداد كبيرة من العمال غير المهرة لإنجاز الأعمال المبدئية اللازمة للاستيطان ، كشق الطرق ، وزرع الأشجار ، وتسوية الأرض ، وإنشاء السكك الحديدية ، وتركيب أعمدة التلغراف .. إلخ . كل ذلك سيتم إنجازه طبقًا لخطة كبرى سبق إعدادُها .

التجارة :

إنَّ العمل المَنْقُول إلى هذا الوطن بطبيعة الحال تجارة ، وستوفر الأسواق الأولى ضرورات الحياة القصوى كالأبقار والحبوب وملابس العمل وأدواته والأسلحة .. ذلك على سبيل ذكر بعضها فقط . وسيكون علينا في البداية أن نَجْلِبَها من الدول المُجاورة أو من أوربا ، ولكننا سنجعل أنفسنا مستقلين في أسرع وقت ممكن ، فسرعان ما سيدرك اليهود من أصحاب المشروعات أي الأعمال سيكون لها مستقبل في الوطن الجديد .

وسَيُوَفِّر جيش الشركة من الموظفين تدريجيًا احتياجات للحياة أكثر رفاهية (هؤلاء الموظفون سيشتملون على ضباط جيش دفاعنا الذي سيشكل دائمًا حوالي عُشر مستعمرينا من الرجال ، وهو عددٌ كافٍ لقمع التَّمَرُّد ، لأن غالبية مستعمرينا سيكونون من الجانحين إلى السلام) .

إنَّ حاجات الرفاهية المقدَّمة من موظفينا الذين يشغلون المراكز الكبيرة سوف تخلق سُوقًا أفضل من شأنه أن يستمر في التحسّن . وسوف يبعث الرجل المتزوج في طلب زوجته وأبنائه ، وسوف يبعث الأعزب في طلب أبويه والأقارب عندما يؤسس مسكنه « هناك » . لقد فعل اليهود الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة نفس الشيء دائمًا . فعندما يتوفَّر لأحدهم غذاءُ يومِه وسَقْفٌ فوق رأسه يبعث في طلب أهله ؛ لأن الروابط الأسرية فيما بيننا قوية . وسوف تتضافر جهودُ كل من جمعية اليهود والشركة اليهودية لرعاية الأسرة وتقويتها أكثر مما كانت عليه ، ليس فقط من الناحية الأدبية ، ولكن من الناحية المادية أيضًا . وسوف يتلقَّى الموظفون علاوات مالية على الزواج وعلى الأطفال المولودين ، فنحن نحتاج إلى كل مَنْ « هناك » وكل مَنْ سيأتون مِنْ بعدهم .

أنواع أخرى من المساكن :

لقد وَصَفْتُ فيما سبق مَسَاكن العمال التي سيقومون ببنائها بأنفسهم ، ولم أَتعرض بالذكر لأنواع أخرى من المساكن . وسأحاول فيما يلي الإشارةَ إليها . إن مهندسي الشركة المعماريين سيبنون للطبقات الأفقر من المواطنين أيضًا ، سواء منهم الذين يتلقون أجورهم أشياءً عينية أو نقودًا .

سَيُنَفِّذ المعماريون حواليْ مائة نوع من طُرُز المنازل ، وسيقومون بتكرارها بطبيعة الحال . هذه الطُّرُز البديعة من المنازل سوف تكون جزءًا من دعايتنا ، وسوف تضمن الشركة سلامة الإنشاءات لهذه المباني ، ولن تَرْبَح – في الواقع – شيئًا ببيعها للمستوطنين بأسعار محددة . وأين ستقام هذه المنازل ؟ سوف نوضح هذا في الجزء الذي يعالج موضوع « المجموعات المحلية » .

ولما كانت الشركة لا تَسْعى للكسب من أعمال البناء مكتفية بأرباحها من الأرض فقط ، فإنها تود أن يقوم أكبر عدد من المعماريين بالبناء عن طريق العقود الخاصة . هذا النظام من شأنه أن يزيد من قيمة العقارات ، ويُوفِّر الرفاهية التي ستخدم عددًا من الأهداف . فالرفاهية تُشَجِّع الفنون والصناعات ، وتُمَهِّد الطريق في المستقبل لتقسيم الملكيات الكبيرة . فأغنياء اليهود الذين يُضطرون الآن إلى إخفاء أشيائهم الثمينة بحرص ، ويقيمون ولائمهم الكئيبة خلف ستائر مسدلة ، سوف يستطيعون أن ينعموا بممتلكاتهم في سلام « هناك » . فإذا تعاونوا في تنفيذ مشروع الهجرة هذا ، فإنَّ رأس المال سُيُجَدّد نشاطه « هناك »[١] وسوف يُسَاعد

(١) حيثما ترد كلمة « هناك » بهذا الشكل بين علامتي تنصيص فإنها تشير إلى الوطن المرتقب . (المترجم) .

على إقامة مشروعات لا مثيل لها .

فإذا بدأ أغنياء اليهود في إعادة بناء قُصورهم في المستوطنات الجديدة ، تلك القُصُور التي ينظر إليها في أوربا بعيون حاسدة ، سُرعان ما يصبح من السائد أن تكون الحياة « هناك » في منازل عصرية جميلة .

بعض أشكال من التصفية :

إنَّ الشركة اليهودية مَعْنِيّة بِتَلَقِّي وإدارة السِّلع اليهودية غير القابلة للنقل ، ومن اليَسير أن نتخيّل طُرق إجراءاتها فيما يتعلق بالبيوت والأراضي ، ولكن أي أَساليب ستتبناها الشركة في نقل الأعمال التجارية ؟ هنا نجد عددًا لا يُحصى من الإجراءات العملية التي لا نستطيع الإفاضة فيها في هذا الموجز . لكن لا شيء منها يُمَثّل صعوبة كبيرة . ففي كل حالة إذا اختار صاحب العمل قَرَار الهِجْرة فما عليه إلا أن يَتّفق مع مُوظَّفي الشركة في منطقته على أصلح شكل للتصفية .

تنظيم هذا مُمْكِنٌ بأيْسر السُّبُلِ في حالة صغار أصحاب العمال ، حيث يكون النشاط الشخصي في مهنهم أكثر أهمية بينما السلع والتنظيم في منزلة تالية من الاعتبار . هنا سوف تُوَفِّر الشركة مجالًا معينًا للنشاط الشخصيّ للمهاجر ، وستعوضه بدلًا من سلعه بقطعة من الأرض مع سُلفة من الآلات . واليهود معروف عنهم أنهم يتكيَّفُون بسهولة ملحوظة مع أي صورة من صور كسب العيش ، ولسوف يتعلَّمُون سريعًا أن يقوموا بصنعة جديدة .

وبهذه الطريقة يتحوَّل عدد من صغار التجار إلى صِغار المُلاك . وفي الواقع ستكون الشركة مستعدة لتحمل ما يبدو أنه خسارة ، بتَسَلُّمها الممتلكات غير القابلة للنقل من أفقر المهاجرين ؛ لأن ذلك سيؤدي إلى الزراعة الحرة لمناطق

فسيحة من الأرض ، وهذا من شأنه أن يرفع قيمة المناطق المجاورة .

أما في الأعمال متوسطة الحجم حيث تكون السلع والتنظيم يُعادلان أو حتى يزيدان في الأهمية عن النشاط الشخصيّ للمدير ، الذي علاقاته الأكبر أيضًا غير قابلة للنقل ، فهناك صور مختلفة من التصفية ممكنة .

هنا تأتي فُرصة الهجرة الداخلية للمواطنين المسيحيين إلى المواقع التي أخلاها اليهود . أَمَّا اليهوديّ الراحل فلن يفقد خبرته في العمل ، بل سيحملها معه ، وسوف يستفيد بها في الوطن الجديد لبناء نفسه .

وسوف تفتح الشركة اليهودية له حِسَابًا جاريًا في البنك ، كما يستطيع أن يبيع خلوّ طرفه من عمله ، أو يسلم العمل للمديرين تحت إشراف موظفي الشركة . وقد يستأجر المديرون العمل ، أو يشترونه ويدفعون ثمنه بالتقسيط . ولكن الشركة سَتَقُوم كَوَكيل مؤقَّت للمهاجرين في الإشراف – بواسطة موظفيها ومحاميها – على إدارة شؤونهم ، والعناية بجمع مستحقاتهم المالية .

فإذا تعذَّر على يهوديّ أن يبيع أعماله ، ولم يرغب في أن يأتمن وكيلًا عنه ، ولم يرغب في تسليم إدارتها ، فما عليه إلا أن يبقى حيث هو .

إنَّ اليهود الذين سيبقون لن يكونوا أسوأ حالًا ؛ لأنهم سيتخلصون من منافسة الذين هاجروا ، ولن يسمعوا بعد ذلك صيحة العداء للسامية « لا تَشْتَرِ من اليهود ! » .

وإذا رَغِب صاحبُ العمل المُهَاجِر في الاستمرار في مهنته القديمة في الوطن الجديد فإنه يستطيع أن يرتب هذا منذ البداية وهناك نَمُوذج يمثل ما أعني أفضلَ تمثيل .

فمثلًا شركة « إكس » تقوم بأعمال كبرى في النسيج ، وأراد رئيس الشركة أن يهاجر ، فإنه يبدأ بإنشاء فرع لشركته في مقر إقامته المستقبليّ ، ويبعث بعينات من بضائعه إلى هناك .

سيكون الفقراء من أوائل المستوطنين هم أول زبائنه ، وسيتلو هؤلاء مهاجرون من طبقات أعلى ممن يتطلبون سلعًا أرقى . حينئذ يبعث « إكس » بسلع جديدة .. وهكذا حتى يأتي وقت يبعث فيه بأَحْدَث بضائعه .

وسيبدأ فرع الشركة في تحقيق مكاسب بينما لا تزال الشركة الأصلية قائمة ، وهكذا ينتهي « إكس » إلى أن يكون مالكًا لمؤسستين يحققان مكاسب ، فيبيع الشركة الأصلية أو يسلمها إلى وكيل مَسيحيّ يديرها ، ويرحل هو ليتولّى مسئولية الشركة الجديدة .

وهناك نموذج آخر أكبر :

« واي وابنه » تجار فَحْم كبار ، عندهم مَنَاجِمهم ومَصَانعهم ، فكيف يمكن تصفية مثل هذه الممتلكات الضخمة المعقدة ؟

المَنَاجم ومتعلّقاتها جميعًا يمكن أن تشتريها الدولة في أي بلد وُجدت ، وقد تتسلمها الشركة اليهودية وتدفع بعض ثمنها أرضًا وبعضه الآخر مالًا .

وهناك طريقة ثالثة ممكنة وهي تحويل شركة « واي وولده » إلى شركة محدودة .

وطريقة رابعة تتمثل في استمرار العمل في الشركة تحت إشراف المُلاك الأصليين الذين يستطيعون أن يعودوا من وقت لآخر للتفتيش على ممتلكاتهم كأجانب تحت حماية القانون ، كما يحدث في أي دولة متحضرة .

هذه المُقْترحات كلها يتم تنفيذها كل يوم . وهناك طريقة خامسة ممتازة ، وهي قد تكون مريحة بصفة خاصة ، ولأن الحالات الموجودة منها الآن قليلة وغير مؤثرة فسوف أشير على حقيقة ما إذا كان الضميرُ الإنسانيُّ الحديثُ مهيئًا لِتَبَنِّيها .

فيمكن أن يبيع « واي وابنه » مشروعه إلى هيئة مشتركة من موظفيها ، الذين يُمكنهم أن يؤسسوا جمعية تعاونية ذات مسئولية محدودة . ومن ثَمَّ يَدْفع الموظفون بالتقسيط القَرْضَ الذي قد يكون مُقَدّمًا من الحكومة أو من الشركة اليهودية أو حتى من شركة « واي وابنه » .

ستكون الشركة اليهودية مُستعدة لتنظيم نقل الأعمال الصغيرة والكبيرة على السواء . وبينما يُهاجر اليهود بهدوء ويُؤَسِّسُون بيوتَهم الجديدة ، تقوم الشركة بدور الهيئة الكبرى المنظمة ، التي تُنَظِّم الرَّحيل ، وتأخذ على عاتقها مسئولية الممتلكات المتروكة ، وتضمن التَّصرف السليم للحركة وممتلكاتها المنظورة والحقيقية ، وتوفر الطمأنينة الدائمة لهؤلاء الذين استقروا بالفعل في الوطن الجديد .

ضَمَانات الشركة :

ما هي الضمانات التي ستوفرها الشركة بحيث لا تَتسَبَّب الهجرة من هذه الدولة في إفقارها أو يترتب عليها كوارث اقتصادية ؟ لقد ذكرتُ فيما سبق أن أعداء السامية المُخْلِصين بينما يحافظون على استقلالهم ، سيقومون بالتعاون مع موظفينا في إدارة نقل ممتلكاتنا . ولكن عوائد الدولة قد تُعَانِي من خسائر بسبب رَحيل العدد الكبير من دَافِعي الضَّرائب ، الذين لم يُقَدِّرهم أحد

كمواطنين إلا قليلًا ، إلا أنهم في أعلى درجات التقدير من حيث التمويل .

إنَّ الدولة من أجل ذلك ، يجب أن تَحْصُل على تعويض عن هذه الخسارة ، وسوف نقدّم هذا بطريقة غير مباشرة ، حيث إننا تركنا في الدولة مشروعات أقمناها نحن بوسائل البراعة اليهودية والنشاط الصناعيّ اليهوديّ ، كما أننا سَنَترك إخواننا من المواطنين المسيحيين ينتقلون إلى مَراكزنا الخالية ، وبهذا نكون قد يسّرنا على أعداد كبيرة من الناس أن يرتقوا درجات أكبر من الازدهار بطريقة سلميّة لا نظير لها .

لقد حقَّقت الثورة الفرنسية نتائج مماثلة شيئًا ما ، على نطاق أضيق ، ولكن هذه النتائج جاءت عن طريق حمّامات الدم تحت المِقْصَلة في كل مقاطعة من فرنسا ، وفي ميادين الحرب في أوربا . وعلاوة على ذلك فقد دمرت الحقوق الموروثة منها والمكتسبة ، ولم يتمتع بالثراء سوى أولئك الدهاة الذين اشتروا ممتلكات الدولة .

سوف تُقَدّم الشركة اليهودية إلى الدول - التي تأتي في مجال نشاطها - مَنَافع مباشرة وغير مباشرة .

فسوف تعطي الحكوماتِ - كأول عطاء - ممتلكاتِ اليهود المهجورة ، وستتيح للمشترين أفضلَ الشروط ، وسوف تكون الحكومات قادرة على الاستفادة من التخصيص الودِّي للأرض للقيام بإصلاحات اجتماعية معينة . وستعطي الشركةُ الحكوماتِ والبرلماناتِ كلَّ مساعدة لتوجيه الهجرة الداخلية للمواطنين المسيحيين .

وسوف تدفع الشركةُ اليهوديةُ أيضًا ضَرَائبَ جمركيةً ثقيلة ، وسوف يكون

مركزها الرئيسيّ في لندن حتى تكون في حماية قانونية لقوة ليست في الوقت الراهن معادية للسامية .

ولكن إذا دُعمت الشركة من الجهات الرسمية وشبه الرسمية فستوفر في كل مكان قاعدة عريضة من الضرائب . ولهذا الغرض ستنشئ مكاتب فرعية للضرائب في كل مكان .

أكثر من ذلك ، ستُدفع ضرائب جمركية مرتين على النقل المزدوج للسلع التي تنقلها . وحتى في الإجراءات التي لا تمثل الشركة فيها أكثر من وكالة للأرض العقارية ، فسوف تبدو بصفة مؤقتة كمشترٍ ، وسوف توضع في السجل العقاريّ كمالك مؤقت .

هذا بطبيعة الحال أُمور يمكن حسابها . وفي كل مكان يجب التدبر واتخاذ القرار في المدى الذي يمكن للشركة أن تذهب إليه ، دون المخاطرة بالإخفاق .

وسوف تقوم الشركة بنفسها بالتفاوض الحُرّ مع وزراء المالية في النقاط المختلفة للقضايا المعروضة . وسوف يشهد الوزراء الروح الودية لمشروعنا ، وسوف يقدمون بالتالي جميع التسهيلات التي في سلطاتهم ، مما هو ضروريّ للإنجاز الناجح لهذا المشروع الكبير .

وهناك مَنَافع أُخرى مباشرة ستعود على الحكومات من جراء نقل المسافرين والبضائع ، فحيثما تكون السكك الحديدية مملوكة للحكومة فإن العوائد سيظهر أثرها المباشر ، وحينما تكون مملوكة لشركات خاصة ، فإنَّ الشركة اليهودية ستحظى بشروط أفضل للنقل ، كما يفعل أي ناقل للبضائع على نطاق كبير .

إنَّ أُجور الشحن والنقل يجب أن تكون رخيصة بقدر الاستطاعة لشعبنا ؛

لأن كل مُسافر سوف يدفع بنفسه تكاليف سفره . وسوف يسافر أبناء الطبقات الوسطى بتذاكر شركة « كوك » ، ويسافر أبناء الطبقة الفقيرة في قطارات المهاجرين ، وقد تستطيع الشركة أن تحصل لهم على تخفيضات مرموقة ، سواء على المسافرين أو البضائع . ولكن هنا ، كما في كل الأمور الأخرى ، يجب أن تلتزم الشركة بمبدئها في ألا تحاول زيادة إيراداتها بمبالغ من التكلفة التي تغطي نفقات عملها .

في أماكن كثيرة يُسيطر اليهود على وسائل النقل ، وسوف تكون أعمال النقل أول ما تحتاج إليه الشركة وأول ما ستقوم بتصفيته . وعلى المُلاَّك الأَصليين أن يُسْهِمُوا في خدمة الشركة ، أو يُؤَسِّسُوا أنفسهم « هناك » مستقلين .

وسوف يحتاج الوافدون حديثًا إلى مساعدتهم بالتأكيد ، ولأن مهنتهم مربحة ، فلعلهم بل عليهم بالتأكيد أن يمارسوا مهنتهم هناك لكسب عيشهم .

إنَّ أعدادًا من هذه الشخصيات المِقْدَامة سوف ترحل .

وليس من الضروريّ أن نَصِف كل تفاصيل الأعمال لهذه الحملة العملاقة ، فإنها يجب أن تُستنبط بحكمة من الخُطَّة الأصلية ، بواسطة عدد كبير من الرجال المقتدرين ، الذين ينبغي أن يُحَكِّموا عقولهم للحصول على أفضل نظام .

بعض أنشطة الشركة :

كثيرٌ من الأنشطة ستكون مُترابطة ، على سبيل المثال : سوف تُدْخِلُ الشركة بالتدريج مُنْتجي السلع إلى المستوطنات ، والتي ستكون في بادئ الأمر على أقصى درجة من البدائية .

فالملابس والأحذية سوف تكون أول ما يُصنع من أجل مُهَاجرينا الفقراء ،

الذين سَنُوَفِّر لهم أزياء جديدة في مختلف مراكز الهجرة الأوربية ، ولن يأخذوا هذه الأزياء كصدقة مما قد يُؤذي مشاعرهم ، ولكن كبَدلٍ لملابسهم القديمة .

وأي خَسَارة تتحمّلها الشركة بسبب هذا الإجراء فسوف تُقيد كخسارة عمل .

أما أولئك المُعْدَمُون بصفة مطلقة ، فسوف يدفعون ديونهم للشركة من خلال عملهم وقتًا إضافيًا يتلقون عنه أجرًا مجزيًا .

وسوف تكون جمعيات التَّهجير القائمة قادرة على تقديم مساعدات قيمة « هنا » ؛ لأنهم سيقدمون لمستعمري الشركة ما قدَّمُوه من قبل لليهود الراحلين ، أما صور هذا التعاون فمن السهل إيجادُها .

حتى الملابس الجديدة للمستوطنين الفقراء سيكون لها معنًى رمزيٌّ : « إنك تدخلُ الآن حياةً جديدة » .

وسوف تُعْنى جمعيةُ اليهود - قبل الرّحيل بمدة طويلة وخلال الرحلة - بِخَلْق رُوح جادة وحافلة بالبهجة ، بواسطة الصلاة ، والمحاضرات العامة ، وتعليمات بخصوص هدف الحملة ، وتوجيهات تتعلق بالأُمور الصِّحية في الأماكن الجديدة التي سيعيشون فيها ، وإرشادات متعلقة بأعمالهم المستقبلية ؛ لأن « أرض الميعاد » هي أرضُ العمل . وعند وُصُول المهاجرين سيرحب بهم - بواسطة كبار موظفينا - بالاحترام الواجب ، ولكن بدون تهليل مضحك ، فإن أرض الميعاد لن تكون قد خضعت بعد ، إلا أن هؤلاء الفقراء يجب أن يشعروا أنهم في وطنهم .

إنَّ صناعة الشركة للملابس - بطبيعة الحال - لن تنتج سلعًا بدون تنظيم

سليم . فسوف تحصل جمعية اليهود من فروعها المحلية على معلومات عن عدد واحتياجات وتاريخ وصول المستوطنين .

وسوف تُبَلَّغُ هذه المعلوماتُ في وقت مبكر إلى الشركة اليهودية ، وبهذه الطريقة سيكون في الإمكان توفير جميع التَّدابير الوقائية لهم .

إنشاء الصناعات :

لا ينبغي في هذا الموجز أن تظلّ واجبات الشركة اليهودية وجمعية اليهود مُنفصلة بعضها عن بعض . فإنّ هاتين المؤسستين الكبيرتين ينبغي أن يَعْمَلا في تَوَافق دائم .

فالشركة تعتمد على السلطة المعنوية للجمعية ودَعْمها ، وبالمثل لا تستطيع الجمعية الاستغناء عن المساعدات المادية للشركة .

مثلًا : في تنظيم صناعات الملابس سوف تكون الكميات المنتجة محدودة في البداية للمحافظة على التوازن بين العرض والطلب ، وحيثما تقوم الشركة بتنظيم صناعات جديدة يجب مُمَارسة هذا الاحتياط .

أما المشروعات الفردية فلا يجب أن تقف الشركة في طريقها بقوتها الساحقة . إننا سنعمل مجتمعين حيثما تتطلب الصعوبات الكبرى للمهمَّة عملًا مشتركًا ، ولسوف نحترم بدقة - حيثما أمكن - حقوقَ الأفراد .

إنّ الملكية الخاصة - التي هي الأساسُ الاقتصادي للاستقلال - سوف تنمو بحرية وسوف نحترمها . وسوف تكون الفرص مُتَاحة فورًا لعمالنا الأوائل غير المهرة أن يجتهدوا في الصعود إلى الملكية الخاصة .

علينا بحق أن نُشَجِّع رُوح المشروعات بكل وسيلة ممكنة . إن تنظيم

الصناعات يجب أن يتم بنظام حكيم من الواجبات ، باستخدام مواد خام رخيصة ، وإنشاء مؤسسة لها مجلس لجمع الإحصاءات الصناعية ونشرها .

ولكن روح المشروعات يجب تشجيعُها بحكمة ، ويجب أن نتجنب المضاربات الخطيرة .

فكل صناعة جديدة يجب الإعلان عنها قبل فترة طويلة من إنشائها ، حتى يتجنب الإخفاق أولئك الذين قد يبدأون عملًا مشابهًا بعد ستة أشهر .

وحيثما يتم إنشاء مؤسسة صناعية يجب إخطار الشركة ، حتى تستطيع جميع المعنيين أن يحصلوا على معلومات عنها .

ويستطيع رجال الصناعة أن يستفيدوا من وكالات العمل المركزية التي ستحصل نظير ذلك على أجر يكفي فقط لتأمين استمرارها .

فعلى سبيل المثال ، قد يبعث رجل الصناعة تلغرافيًّا يطلب خمسمائة عامل غير ماهر لمدة ثلاثة أيام أو ثلاثة أسابيع أو ثلاثة أشهر ، عندئذ تقوم وكالة العمل بِجَمْع هؤلاء العمال الخمسمائة من كل مَصْدر ممكن ، وتَنْقُلهم على الفور لتنفيذ المشروع الصناعيّ أو الزراعيّ المطلوب . وهكذا يتم نقل مجموعات من العمال بنظام من مكان إلى مكان آخر كمجموعة من الجنود .

هؤلاء الناس لا ينبغي – بطبيعة الحال – إجهادُهم ، وإنما سيعملون فقط سبع ساعات في اليوم . هؤلاء العمال رغم تغيير مكانهم سوف يحافظون على تنظيمهم ، ويعملون في حدود شُروط العمل ، وَيَتَلَقَّون الأوامر ويحصلون على الترقيات والمعاشات .

قد تستطيع بعضُ المؤسسات – بطبيعة الحال – الحُصُولَ على عمالها من

مصادر أخرى إذا رغبت في ذلك ، ولكنها لن تجد ذلك مَيْسورًا ، وستكون الجمعية قادرة على منع استخدام عبيد العمل من غير اليهود ، وذلك عن طريق مقاطعة أصحاب العمل المعاندين ، ومن خلال قطع المواصلات عنهم ، وبوسائل أخرى مختلفة ، ولذلك فإن عمال نظام الساعات السبع هم الذين ينبغي استخدامُهم ، وبهذا يتعود شعبنا بالتدريج – وبدون قَهْر – أن يتبنى اليوم المعتاد للعمل « سبع ساعات » .

مستوطنات العمال المهرة :

من الواضح أن ما أمكن عَمَلُه للعمال غير المهرة يمكن عَمَلُه بسهولة أكثر للعمال المهرة ، فهؤلاء سيعملون في المصانع وفق تنظيمات مشابهة ، وسوف تقوم وكالة العمل المركزية بتوفيرهم حسب الطلب .

أما العمال المستقلون وأصحاب الأعمال الصغار – فنظرًا للتطور السريع في الإنجازات العلمية – فينبغي أن يحصلوا على المعلومات التكنولوجية ، حتى وإن كانوا قد تَجَاوزوا سِنّ الشباب ، وأن يدرسوا القوى المائية ، ويتفهموا القوى الكهربائية .

إنَّ العمال المستقلين أيضًا ينبغي أن يتم اكتشافُهم وتوفيرُهم من خلال وكالة الجمعية . فيطلب الفرع المحليّ مثلًا من المركز الرئيسيّ : « نحن نحتاج إلى عدد كذا من النجارين أو صناع الأقفال أو الزجّاجين .. » وسوف ينشر المكتب المركزيّ هذا الطلب ، ومن ثَمَّ يتقدم الرجالُ الملائمون للعمل . هؤلاء سوف يرحلون مع عائلاتهم إلى المكان الذي طُلبوا فيه ، وسوف يبقون هناك بعيدًا عن الشعور بضغوط المنافسة غير الملائمة . وهناك سَيُزَوَّدُون بمسكنٍ دائمٍ مريح .

أساليب الحصول على رأس المال :

كان رأس المال المطلوب لإنشاء الشركة قد تمَّ تقديرُه فيما سبق برَقْمٍ كبير يبدو غير معقول . أما القدْر الضروريّ في الواقع فسيحدده المُمَوِّلُون ، وسوف يكون مبلغًا كبيرًا جدًّا .

وهناك ثلاثة أَساليب للحصول على هذا المبلغ ستأخذها الجمعية جميعًا في الاعتبار ، فالجمعية وهي المدير[1] الأعظم لليهود سوف تتألف من أفضل رجالنا وأكثرهم استقامة ، وهؤلاء لا ينبغي لهم أن يحصلوا على أي منفعة مادية من عضويتهم للجمعية . وعلى الرغم من أن الجمعية في مُسْتَهَلّ حياتها لن تملك أكثر من سلطات معنوية ، فإن هذه السلطات كافية لخلق الثقة في الشركة اليهودية في عيون الأمة .

لن تكون الشركة اليهودية قادرة على النجاح في مشروعها ما لم تحصل على موافقة الجمعية ، ومن ثم فلن تتكون الشركة من أي مجموعة جزافية من الممولين . بل ستدقق الجمعية في وزنها واختيارها وقرارها ، ولن تمْنح موافقتها حتى تتأَكَّد من تَوَفُّر ضمانات كافية للقيام بالمشروع على أحسن وجه .

إنها لن تسمح بالتجارِب بوسائلَ غيرِ كافيةٍ ؛ لأن هذا المشروعَ لا بُدَّ له أن ينجح من أول محاولة .

فأيّ فشل في البداية سيضع الفكرة كلها موضع شك لأجيال قادمة ، وقد

---

(١) « المدير » ترجمة لكلمة Gestor اللاتينية ، وهي تحمل معنى المدير أو الكفيل أو هما معًا . (المترجم) .

يجعل تحقيقها أمرًا مستحيلًا إلى الأبد .

أما الطُّرق الثلاثة للحصول على رأس المال فهي :

١ - خلال البنوك الكبرى .

٢ - خلال البنوك الصغيرة والبنوك الخاصة .

٣ - خلال الاكتتاب العام ..

الطريقة الأولى للحُصول على رأس المال هي من خلال البنوك الكبيرة . بهذه الطريقة سيمكن الحصول على المبلغ المطلوب في أقصر وقت ممكن من المجموعات المالية الكبرى ، بعد أن يكونوا قد نَاقَشُوا صلاحية المشروع .

وأكبرُ مِيزَةٍ لهذه الطريقة هي أنها ستتجنب ضرورة دفع الألف مليون (إذا التزمنا بالرقم الأصليّ) بأكمله على الفور .

وهناك ميزة أخرى محتملة حيث إن الثقة في هؤلاء الممولين الأقوياء قد تخدم المشروع .

هناك قَدْر كبير من قوتنا السياسية الكَامِنة في قوتنا المالية ، ويُؤَكِّد أعداؤنا أنها قوة ذات فاعلية . لعلها تكون كذلك ، ولكنها في الواقع ليست كذلك .

إنَّ اليهود الفقراء لا يشعرون بغير الكراهية التي تُثِيرها هذه القوةُ المالية ، ذلك أنهم لم يروا بعدُ أنها تُستخدم في رفع شأنهم . إن ثقل ممولينا الكبار من اليهود يجب أن يوضع في خدمة الفكرة القومية .

ولكن ليت هؤلاء الرِّجال الأثرياء - الذين هم راضون تمامًا بنصيبهم - يشعرون بميل لأن يَفْعَلُوا شيئًا لإخوانهم اليهود ، أولئك الذين يعتبرهم الناسُ ظُلمًا أنهم مَسْئُولون عن تلك الممتلكات الهائلة التي يَسْتَحوذ عليها فئة مُعَيّنة

من الأفراد .

إنَّ تحقيق هذه الخُطَّة سوف يُتيح الفرصةَ لوضع خَطٍّ واضحٍ للتمييز بين هذه الفئة وبين بقيّة اليهود .

وفوق هذا فلن يُطْلَب من كبار الممولين - بالتأكيد - أن يُوفِّروا مبلغًا ضخمًا كهذا بدافع من الإحسان المجرد ، إنَّ هذا أكثر مما ينبغي توقعه ؛ فإن مؤسسي الشركة اليهودية وحملة الأسهم فيها على عكس ذلك يسعون إلى إقامة عمل تجاريّ جيد . وسوف يكونون قادرين على التَّنَبُّؤ بفرص النجاح المحتملة . وسوف يكون في حَوْزة جمعية اليهود جميعُ الوثائق والمراجع التي يُمكن أن تخدم في تحديد احتمالات المستقبل بالنسبة للشركة اليهودية .

سوف تكون الجمعية - بصفة خاصة - قد بحثت بدقة مدى الحركة اليهودية الجديدة ، حتى تُوَفِّر لمؤسسي الشركة معلومات يُعْتَمد عليها تمامًا ، بالنسبة للقدر من الدعم الذي يمكن أن يتوقعوه .

وسوف تمد الجمعية - أيضًا- الشركة اليهودية بإحصاءات حديثة شاملة ، وبهذا تكون قد قامت بالعمل الذي قامت به في فرنسا جمعية يطلق عليها اسم جمعية الدراسات « Socite d'etudes » التي تأخذ على عاتقها جميع البحوث الأولية قبل تمويل المشروعات الكبرى .

ومع ذلك فإن المشروع قد لا يحظى بالمُسَاعدة القيمة من أثريائنا أرباب الصناعة والتجارة ، بل لعلهم يحاولون معارضة الحركة اليهودية بواسطة خدَّامهم ووكلائهم السريين . هذه المعارضة كأي معارضة أُخرى قد تفرض علينا ، وسوف نواجهها بتصميم لا يلين . ولنفرض أن أرباب المال هؤلاء قد اكتفوا

بالابتسامة رافضين المشروع ببساطة . فهل معنى هذا أن الموضوع قد انتهى ؟ لا .

لأن المال قد يمكن الحصول عليه بطريقة أخرى ... بمُنَاشدة اليهود مُتوسِّطي الغِنَى ، حيث يتحتَّم على البنوك اليهودية الصغيرة الاتحادُ باسم الفكرة القومية ضد البنوك الكبرى ، وبذلك تُشَكّل البنوكُ الصغيرةُ قوةً ماليةً هائلةً ثانية . ولكن مما يُؤْسَف له أن هذا قد يحتاج إلى قدر كبير من التمويل في بادئ الأمر حيث يتحتم الإسهام بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه كلها قبل بدء العمل . غير أن مثل هذا المبلغ لا يمكن الحصول عليه إلا ببطء شديد ، حيث تتم جميع الأعمال البنكية والقُروض خلال السنوات الأولى القليلة ، وقد يحدث أثناء كل هذه الإجراءات أن يُنسى هدفها الأَصليّ ، ويكون اليهود مُتَوَسّطو الغِنى قد خلقوا مشروعات جديدة وضخمة ، وتكون الهجرة اليهودية قد غاصت في عالم النسيان .

والحصول على المال بهذه الطريقة غير عمليّ بأي حال من الأحوال ، فإن تجربة جمع المال المسيحيّ لتشكيل قوة في مواجهة البنوك الكبرى قد تمت محاولتها بالفعل .

وكذلك يُمكن أيضًا مواجهتُها بأموال يهودية لم يفكر فيها أحَدٌ حتى اليوم .

لكن هذه الصراعات المالية يمكن أن تَجْلب جميع أنواع الأزمات ، ومن ثَمَّ تُعَانِي الدول التي تحدث فيها ، وبذا يَتَفَاقَمُ العداءُ للسامية .

لذلك لا أنصحُ بهذه الطريقة ، وإنما تعرضتُ لها فقط لأنها جاءت في سياق التطور المنطقي للفكرة . إنني أيضًا لا أدري ما إذا كانت البنوكُ الصغيرةُ الخاصةُ تقبلُ أن تتبناها في المستقبل .

وعلى أيّ حال فإنَّ رَفْضَ اليهود مُتَوسِّطي الغنى لن يضع نهاية للمشروع ،

بل على العكس سيجعلنا نأخذ المشروع حينذاك بجدية حقيقية .

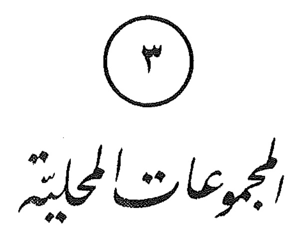
إنَّ جمعية اليهود التي ليس من أعضائها رجال أعمال - قد تحاول أن تُؤَسِّس الشركة على اكتتاب قوميّ . فيمكن الحصولُ على رأس مال الشركة بدون وساطة من « اتحاد الممولين » ، وذلك بواسطة الاكتتاب من جانب الجماهير ، ليس فقط فقراء اليهود ، ولكن المسيحيين أيضًا الذين يريدون أن يتخلَّصُوا من اليهود سوف يكتتبون بمبالغ صغيرة في هذا الرصيد .

وقد نقوم بعمل شكل جديد ومميز من أشكال الاستفتاء العام يعبِّر فيه عن فكرته كل من أعطى صوته بالموافقة على هذا الحل للمشكلة اليهودية ، بالاكتتاب بمبلغ مشروط .

هذا الاشتراط سوف يولد ضمانًا ما ، بِمُقْتَضاه يُدفع رصيدُ الاكتتاب فقط في حالة وصول مجموعه إلى المبلغ المطلوب ، وإلا تُرد المدفوعات الأولية إلى أصحابها . ولكن إذا كان جميعُ المبلغ المطلوب قد حُصِّل عن طريق الاكتتاب الجماهيريّ ، فإنّ كل مبلغ صغير سيكون مؤمَّنًا عليه بواسطة العدد الكبير من المبالغ الصغيرة الأخرى . كل هذا بطبيعة الحال يحتاج إلى المساعدة السريعة الحَاسِمة من الحكومات المعنية .

۞ ۞ ۞ ۞




٣
المجموعات المحليّة



هجرتنا :

لقد بَيَّنتُ في الفصول السابقة كيف يُمكن تنفيذُ مشروع الهجرة دون إحداث خَلَل اقتصاديّ ، إلا أن حركة كبرى كهذه لا يمكن أن تتم دون أن تثير كثيرًا من المَشَاعِر العميقة والقويَّة التي لا سبيل إلى تجنبها . فهناك تقاليد وذكريات قديمة تربطنا بأوطاننا ، ولدينا المُهُود كما لدينا القبور . ونحن وحدنا نستطيع أن نفهم إلى أي مَدًى تتعلقُ قلوبُ اليهود بقبورهم .

أما بالنسبة لِمُهُودنا فسنأخذُها معنا ، إنها تحمل مستقبلنا ، وهو مستقبل ورديّ بَاسِم . أما قبورنا العزيزة فلا بد أن نتخلَّى عنها ، (وفي اعتقادي أن هذا التخلي سوف يكلِّفنا - نحن الشعب التَّوَّاق إلى التُملك - أكثر من أي تضحية أخرى . ولكن لا مفرّ من هذا)[(١)] .

إنَّ العُسْر الاقتصاديّ ، والضغوط السياسية ، والعار الاجتماعيّ ، كل ذلك قد دفعنا بعيدًا عن أوطاننا وقبورنا .

نحن اليهود - اليوم - ننتقل بصفة مستمرة من مكان إلى آخر ، وهناك تيّار قويّ يَحْمِلُنا بشكل فعليّ عبر البحر غربًا إلى الولايات المتحدة ، حيث وجُودنا هناك أيضًا غير مرغوب فيه . فأين سيكون وجُودنا مرغوبًا فيه طالما أننا أمة بلا وطن ؟

---

(١) حُذفت هذه العبارة في تنقيح طبعة دوفر ١٩٨٨ المشار إليها سابقًا . ولقد أثبتناها هنا التزامًا بأمانة الترجمة ، وإن كان المعنى يمكن أن يستقيم بدونها . إنها على الأرجح تكشف عن بعض الملامح الساخرة التي تميز أسلوب هرتسل في انتقاده لمظاهر حياة اليهود في الشتات . فكأنه يريد أن يقول : إن حرص اليهود على قبورهم لا يقل عن حِرْصهم المعروف على المال . (المترجم) .

ولكننا سنعطي لأبناء شعبنا وَطَنًا ، سنعطيهم ليس عن طريق جرّهم بلا رحمة خارج الأرض التي تأويهم ، ولكن على الأحرى - استزراعهم بعناية في أرض أفضل .

وكما نَحرص على أن نخلق علاقات سياسية واقتصادية جديدة ، سيكون حرصنا على قداسة الماضي كله ، هذا الماضي العزيز على قلوب شعبنا .

إنني هنا أقدم بعض المقترحات ، وأرجو أن تكون كافية ؛ ذلك لأن هذا الجزء من مَشْروعي - في أغلب الظن - سَيُتَّهَمُ بأنه مشروع خياليّ . ومهما كان هذا المشروعُ مُمْكنًا وواقعيًا ، إلا أنه يبدو الآن وكأنه شيء غامضٌ وبلا هدف . إن التنظيم سيجعل منه شيئًا معقولًا .

الهجرة في جماعات :

على شعبنا أن يُهَاجر في جماعات من الأُسَر والأصدقاء .

ولن يُجْبَر إنسانٌ على الالتحاق بمجموعة معينة تنتمي إلى مكان إقامته السابق .

فكل واحد سيتمكن من الارتحال بالطريقة التي يختارها ، حينما تتهيأ ظروفه للرحيل . ولما كان كل شخص سيدفع نفقات رحلته بالقطار أو السفينة ، فمن الطبيعيّ أن يرحل في الدرجة المناسبة له . ولعله لن يكون هناكَ تفرقة في الدرجات بالقطار أو السفينة ، حتى نتجنبَ تعميقَ شعور الفقراء بأوضاعهم أثناء رحلتهم الطويلة . إننا وإن لم نكن ننظم رحلة ترفيهية ، إلا أنه لا بأس من إشاعة جو من المرح خلال الطريق .

لن يرحل أحد في إملاق . ومن ناحية أخرى كل من أَرَاد أن يُسَافر مُرَفَّهًا

فما عليه إلا أن يتَّبع هواه .

حتى مع الظروف السانحة ، فإن الحركة لن تمسّ طبقات بعينها من اليهود لسنوات قادمة . ويمكن الاستفادة بالمرحلة الانتقالية في اختيار أفضل الأساليب لتنظيم الرحلات .

أما القادرون فيمكنهم أن يَرْحَلُوا في جماعات - إذا شاءوا - آخذين معهم أصدقاءهم وأقاربهم .

إنَّ اليهود - فيما عدا الأثرياء منهم - لديهم قليل من العلاقات الزواجية مع المسيحيين . كما أنه في بعض البلاد تنحصر معرفتهم بالمسيحيين في عدد قليل من الطفيليين والمقترضين والأتباع ، أما بالنسبة للطبقات الأفضل من المسيحيين فإنَّ اليهود لا يعرفون عنهم شيئًا . إنَّ الجيتو لا يزال قائمًا رغم انهيار جدرانه .

وبناء على ذلك فإن الطبقات الوسطى سوف تقوم بإعداد مدروس ودقيق للرحيل ، وسوف تُشكل في كل منطقة مجموعة من الراحلين ، أما المدن الكبيرة فستقسم إلى أحياء في كل حي منها مجموعة ، وسيكون الاتصال فيما بينهم عن طريق ممثلين منتخبين لهذا الغرض .

هذا التقسيم إلى أحياء ليس حتمًا اتباعه حرفيًا ، إنما المقصود به تخفيف متاعب الفقراء ، وتجنيبهم مشاعر الحنين إلى الوطن أثناء رحيلهم إلى الخارج . وكل إنسان سيكون حُرًّا في أن يُسَافِر وحده أو مُلْتَحِقًا بأيّ مجموعة محلية يُفَضِّلها . وسوف تُطَبَّق شروط السفر المنظم - حسب الطبقات - على الجميع على حد سواء . فأيّ مجموعة مسافرة ذات عدد كاف يمكنها أن تستأجر من الشركة قطارًا خاصًّا وسفينة خاصة .

ولسوف تُوَفّر وكالة الإسكان بالشركة مساكن لأفقر المهاجرين عند وصولهم . وفيما بعد عندما يأتي مهاجرون أَيسر حالًا فإن حاجتهم الواضحة إلى الإقامة فور وصولهم سوف تُوفّرها لهم الفنادق المقامة بواسطة القطاع الخاص .

وسيكون بعضُ هؤلاء الموسرين من المستعمرين - بالتأكيد - قد بنوا منازلهم قبل أن يصبحوا مستوطنين دائمين . ومن ثم فإنهم سينتقلون مجرد انتقال من بيت قديم إلى بيت جديد .

إنها لإهانةٌ لعناصرنا المثقفة أن نَعْرِضَ لكل شيء يجب عليهم أن يفعلوه ، إنما كل إنسان مرتبط بالفكرة القومية يعلم كيف يُشِيعُ هذه الفكرة ، وكيف يجعلها واقعًا في دائرة نفوذه . ونحن في بادئ الأمر نتطلب العون من كهنتنا .

كهنتنا :

كل مجموعة سيكون لها حاخامُها يُسَافر مع رعيته . وسوف تتشكل المجموعاتُ المحليةُ فيما بعد تشكيلًا تطوعيًّا حول حاخامها ، وسوف يكون لكل مجموعة محليّة قائدُها الروحي .

إنَّ حاخاماتنا الذين نُوجِّه إليهم دعوة خاصة سيكرسون طاقاتهم في خدمة فكرتنا ، وسيحفزون رعاياهم بالوعظ من فوق منابرهم ، فلن يحتاجوا إلى التحدث في اجتماعات خاصة من أجل هذا الغرض ، فدعوةٌ كهذه جديرة بأن يتردد صداها بين جدران المعابد . وهكذا ينبغي أن تكون . إننا نستشعر صِلاتِنا التاريخية فحسب من خلال عقيدة آبائنا ، كما أننا - منذ زمن طويل - قد تشربنا لغات الأمم المختلفة لدرجة لا يمكن اقتلاعها .

سوف يَتَلَقَّى الحاخامات أخبارًا منتظمة من كل من الجمعية والشركة ،

وسوف يعلنون عنها ويشرحونها لرعاياهم . إن إسرائيل سوف تصلى لنا ولنفسها .

مُمَثّلو المجموعات المحلية :

سوف تُعَيِّن المجموعات لجانا صغيرة من الرجال تحت رئاسة الحاخام ، لمناقشة وإقرار الشؤون المحلية . وسوف تنقل هذه المجموعة مؤسساتها الخيرية معها . كل مؤسسة تظل « هناك » مِلْكًا لنفس مجموعة الناس التي أُسِّسَتْ أصلًا من أجلهم . وأرى أنه لا ينبغي بيع المَبَاني القديمة ، وإنما تُخَصَّصُ على الأرجح لمساعدة المسيحيين الفقراء في المُدن التي هجرها اليهود ، وفي مُقَابل ذلك ستتلقى المجموعاتُ المحليةُ تعويضاتٍ عن طريق الحصول على أرض مجانية للبناء ، وعلى مُسَاعدات لإعادة البناء في الدولة الجديدة .

إنَّ نقل المؤسسات الخيرية سَيُقَدِّم واحدة من تلك الفرص التي تتكرر عند نقاط مختلفة في مشروعي ، لإجراء تجرِبة في خدمة الإنسانية .

إنَّ أعمالنا الخيرية الخاصة التي لا تعمل في منظومة واحدة في الوقت الراهن ، تُعطي خيرًا قليلًا ، مقارنة بالإنفاق الهائل الذي تنطوي عليه .

إنَّ هذه المؤسسات يمكن بل يجب أن تُشَكِّل جزءًا من نظام ، بحيث يُكَمِّل بعضُها البعضَ الآخَرَ في نهاية الأمر .

ففي مجتمع جديد يمكن لهذه المؤسسات أن تنبع من وعينا الحديث ، ويمكن إنشاؤها على أُسُس من تجارِبنا الاجتماعية السابقة . وهذا أمرٌ بالغُ الأهمية بالنسبة لنا ، بالنظر إلى العدد الكبير من المَعُوزِينَ بيننا .

إنَّ الأشخاص الضعاف منا ؛ أولئك الذين أحبطتهم الضغوط الخارجية ، وأفسدهم الإحسانُ من جانب أثريائنا ، ينهارون بسهولة حتى ينتهي بهم الأمرُ

إلى التسَوُّل . وسَتُولي الجمعيةُ - مُدَعَّمَةً بالمجموعات المحلية - عنايةً أكبرَ بالتعليم الشعبيّ فيما يتعلقُ بهذه النقطة .

إِنَّها سَتَخْلُقُ تربةً مثمرةً لكثير من القوى التي عادت تتلاشى في الوقت الراهن بشكل دائم ودونما فائدة ، فمن يُبدي رغبة أكيدة للعمل سوف يُعطى العمل المناسب ، ولن يكون هناك مكان للفقراء المعدمين ، أَمَّا من يَرْفُض أن يعمل أي شيء كرجل حُرّ فسوف يرسل إلى الإصلاحية .

من ناحية أخرى فإننا لن نُحِيل عجائزنا إلى المَلاَجئ ، فهذه الملاجئ من أَقسى أنواع المؤسسات الخيرية التي اخترعها كرمنا الغَبِيّ حتى الآن ، فيها يموت عَجَائزنا عارًا وإذلالًا ، إنهم فيها مدفونون .

إننا سنترك حتى لأولئك الذين يتمتعون بأقل دَرَجات الذكاء وهمًا مواسيًا ، بأنهم ذوو فائدة في هذا العالم ؛ فسوف نُوَفِّر أعمالًا سهلة لأولئك العاجزين عن العمل العقليّ ، إذ يجب علينا أن نأخذ في اعتبارنا تضاؤل الحيوية في أجيال هدَّها الفقر . أما الأجيال المقبلة فستعامل بأسلوب آخر ، إنهم سيربون على الحرية لحياة حرة .

وسوف نَسْعى بالعمل لمنح الخلاص الأخلاقيّ للرجال من جميع الأعمار والطبقات ، وهكذا يَسْتَعيد شعبنا قوته من جديد في الأرض ذات السبع ساعات عمل في اليوم .

تخطيط المدن :

سوف تفوِّض المجموعات المحلية مُمَثِّليها المعتمدين لاختيار مواقع المدن ، وسَيُؤْخَذ عند توزيع الأراضي كل احتياط ممكن لإجراء انتقال دقيق

محكم ، مع الأخذ في الاعتبار الحقوق المكتسبة .

وسوف يكون لدى المجموعات المحلية خِطَط للمدن بحيث يستطيع أبناء شعبنا أن يعرف مُسبقًا أين سيذهبون ، إلى أي مدينة ، وفي أي المنازل سيعيشون . وسوف تُوَزَّع على المجموعات المحلية رُسُوم واضحة لتصاميم المباني التي أشرت إليها سابقًا .

إنَّ مبدأ إدارتنا هو المركزية الصارمة للحكم الذاتيّ للمجموعات المحلية ، وبهذه الطريقة سيتم الانتقال بأقل قدر من المعاناة .

أَنا لا أتصور أن يكون هذا كله أسهل مما هو عليه في الحقيقة ، ومن ناحية أخرى لا يجب على الناس أن يتصوروا أنه أصعب مما هو عليه في الواقع .

رحيل الطبقات الوسطى :

سوف تَنْجَرف الطبقات الوسطى تلقائيًّا في التيار الخارج ؛ فأبناؤهم سيكونون مُوَظَّفين في الجمعية أو أجراء في الشركة « هناك » .

إنَّ المحامين والأطباء والفنيين من كل نوع ، ورجال الأعمال الشباب ، وفي الحقيقة كل اليهود الذين يبحثون عن فُرص ، والذين يَفِرُّون اليوم من الاضطهاد في أوطانهم لكي يكسبوا عيشهم في أرض أجنبية ، سوف يتجمَّعُون على أرض مليئة بالوعود المواتية .

ستتزوج بنات الطبقة المتوسطة أولئك الرجال الطموحين ، وسيبعث أَحَدُهم في طَلَب زوجته أو خطيبته للَّحاق به ، وسيبعث آخر في طلب أَبَوْيه أو إخوته وأخواته .

وسيتزَّوج أبناء الحضارة الجديدة في سنٍّ مبكرة ، وهذا من شأنه أن يرتقي

بالأخلاق العامة ، ويضمن القوة في الجيل الجديد ، وهكذا لن يكون عندنا أبناء ضعاف بسبب الزِّيجات المتأخرة ، أطفال من آباء أنهكوا قوتهم في الصراع من أجل العيش .

كل مُهَاجر من الطبقة الوسطى سوف يَجْلب بعده كثيرًا من نوعه . وبشكل طبيعي سوف يحصل الأكثر شجاعة على الأفضل من العالم الجديد .

ولكن يبدو لي هنا أنني قد لَمست بلا شك مشكلة حاسمة من خُطتي ، فحتى لو نَجَحْنَا في فتح مناقشة عالمية للمشكلة اليهودية بطريقة جدية ، وحتى لو قادنا هذا النقاش إلى نتيجة إيجابية بأن الدولة اليهودية ضرورية للعالم ، وحتى لو ساعدتنا القوى(١) في الحصول على السيادة على قطعة من الأرض ، فكيف يتسنَّى لنا أن ننقل جماهير اليهود دون إكراه زائد من أوطانهم الحالية إلى هذه الدولة الجديدة ؟ إنَّ هجرة اليهود مقصود بها بكل تأكيد أن تكون هجرة طَوْعِيّة .

ظاهرة الجَمْهَرة :

أي جهد ضخم قَلَّما سيكون ضروريًّا لِحَثّ الحركة ، فإن أعداء السامية يُوَفِّرون القوة الدافعة اللازمة لذلك ، إنهم يحتاجون فقط إلى القيام بما فعلوه من قبل ، ومن ثَمَّ سيخلقون الرغبة في الهجرة حيثما لم تكن موجودة ، ويمنحونها القوة التي كانت قائمة قبل ذلك . إنَّ اليهود الذين بقوا في دول معادية للسامية يفعلون ذلك أساسًا ؛ لأَنَّه حتى الذين أكثر جهلًا بالتاريخ ، يعلمون أن كثيرًا من التغييرات الحياتية في القرون الماضية لم تجلب لهم أي خير دائم .

وأيُّ دولة تُرَحِّب باليهود اليوم وتُوَفِّر لهم حتى مزايا أقل مما توفره الدولة

---

(١) يُفهم من السياق أنه يقصد القوى العالمية . (**المترجم**) .

اليهودية – إذا نشأت – مثل هذه الدولة سوف تجتذب على الفور تدفقًا عظيمًا من أبناء شعبنا ، فالفقراء الذين ليس لديهم ما يَفْقِدُونه سوف يُجَرْجِرُون أنفسهم إلى هناك . ولكنني أَزعم – وكل إنسان من حقه أَن يتساءل إذا لم أكن مُحِقًّا – أن الضغوط الواقعة علينا تثير فينا الرغبةَ في الهجرة ، حتى بين الطبقات الموسرة في المجتمع .

إنَّ طبقاتنا الفقيرة وحدها تكفي لإقامة دولة ، فهؤلاء يشكلون أقوى العناصر البشرية القادرة على حيازة الأرض ، لأن قليلًا من اليأس لا غنى عنه للقيام بالإنجازات الكبرى . ولكن عندما يَتَزَايد عدد المغامرين منا ، فإن قيمة الأرض – بوجودهم وبالعمل الذي ينفقونه عليها – تتزايد ، وفي نفس الوقت فإنهم يجعلون الأرض أكثر جاذبية كمكان لاستيطان أناس أيسر حالًا .

وستشعر طبقات أَعلى وأَعلى بإغراء للذهاب إلى هناك .

إنَّ الحملة الاستكشافية من المستوطنين الأوائل والأفقر ، سوف تقودها الشركة والجمعية متضافرين ، ولربما يعززهما في ذلك جمعياتُ الهجرة القائمة والجمعيات الصهيونية .

كم من الناس قد تمَّ توجيهُهم إلى مكان معين بدون إعطائهم أوامر عاجلة للذهاب هناك ؟ هناك بعضُ اليهود المحسنين على نطاق واسع ممن يحاولون رفع المعاناة عن اليهود من خلال التجارِب الصهيونية .

هذه المشكلة تطرح نفسَها عليهم أيضًا ، وقد فَكَّروا فِي حَلِّها عن طريق إعطاء المهاجرين مالًا أو وسائل للعمل . وهكذا فإنَّ المحسنين يقولون : « إننا ندفع لهؤلاء الناس لكي يذهبوا إلى هناك » .

مثل هذا العمل محضُ خطأ ، فكل مال العالم لن يحقق الغرض منه .

من ناحية أخرى تقول الشركة : « نحن لن ندفع لهم ، بل سنجعلهم يدفعون لنا ، نحن فقط سَنُوَفِّر لهم بعض الحوافز لكي يرحلوا » .

ولكي يكون المعنى الذي أقصده أكثر وضوحًا دعنا نتصور هذا الموقف :

أحد هؤلاء المحسنين (وسنطلق عليه اسم البَارون) وأنا ، معًا نريد أن نحضر جمهورًا من الناس إلى سَهْل « لون شان » بالقرب من باريس ، في يوم أحد قائظ بعد الظهيرة ، « البارون » بوعده لهم عشرة فرنكات لكل واحد سيجلب بمائتيْ ألف فرنك عشرين ألفا من العرقى البائسين ، وسوف يلعنونه ؛ لأَنه سَبَّبَ لهم كثيرًا من الضَّرر . أما أنا فسأجعل هذه المائتيْ ألف فرنك جائزة لأسرع فرس في حلبة السباق ، وسَأُقيم حواجز لأمنع الناس من الدُّخول . إنهم سيدفعون لكي يدخلوا : فرنكا وخمسة فرنكات ، وعشرين فرنكًا .

وستكون النتيجة أنني سآتي بنصف مليون هناك ، وسيحضر رئيس الجمهورية لتشريف الحفل ، وسوف يستمتع الجمهور وَيَتسَلَّى ، وسيرى غالبيتهم - رغم الحرارة والغبار - أنها فسحة مرغوبة في الهواء الطلق ، وسوف أحصل في مقابل المائتيْ ألف فرنك على حواليْ مليون من رُسُوم الدخول وضرائب اللعبة . وسأَستطيع أن آتي بالناس إلى هناك عندما أريد ، أما البارون فلن يستطيع ذلك بأي وجه من الوجوه .

سوف أَسْتعرض فيما يلي صورة أكثر جدية لظاهرة الجمهرة حيث يكسب الناس عيشهم . لنجعل رجلًا ما أن يجرب النِّداء في طرقات مدينة ما قائلا : « كل مَنْ يستطيع أن يقف طَوالَ اليوم في برد الشتاء القارس ، وفي حرارة

الصيف اللاهبة في بهو مفتوح من الحديد ، لِيُخَاطب كل عابر سبيل ، ويُقَدِّم له بعض التُّحف أو السمك أو الفاكهة ، كل من يستطيع أن يفعل ذلك سيمنح فلورينان أو أربعة فرنكات أو ما يماثل ذلك » .

كم من الناس سيذهب إلى هذا البَهْو ؟ وكم من الزمن سيبقى الجمهور خارج البهو حتى يسوقهم الجوع إليه ؟ وإذا بقوا في الخارج ، أي قَدْر من الجهد عليهم أن ينفقوا في محاولة إِقناع المَارَّة بشراء السمك والفاكهة والتُّحَف ؟

سوف نَعْرض المسألة بطريقة مُختلفة . في أَماكن تكون فيها التجارة نشيطة ، ونحن نكتشف مثل هذه الأماكن بسهولة كبيرة . فنحن نُوَجِّه التجارة حيثما نرغب . في هذه الأماكن سوف نبني ردهات كبيرة نسميها أسواقًا ، ربما تكون أسوأ بناءً وأقلّ صِحية من تلك التي سبق ذكرها ، ومع ذلك فسوف يتقاطر عليها الناس .

ولكننا سنبذل قصارى جهدنا ، وسنبني هذه الأسواقَ بطريقة أفضل ، وسنجعلها أجمل . ولن نَعِد أصحاب الأعمال بشيء ؛ لأننا لا نستطيع أنْ نَعِد بشيء يَنْطَوي على خِدَاع ، هؤلاء الناس من رجال الأعمال المتحمسين ، سوف يخلقون بسرور معاملات تجارية أكثر نشاطًا .

إنهم سيشجعون المشترين بلا كَلَل ، سيقفون على أقدامهم وقلَّما سَيَشْكُونَ من التعب ، وسوف يتدافعون كل يوم لكي يكونوا أول من يَصِلُ إلى موقعه ، سوف يؤلفون اتحادات وكارتلات ، وسيفعلون أي شيء لكي يستمروا في كَسْب مَعَاشِهم دون عائق .

وإذا وجدوا أنَّهُم في آخر النهار وبعد كل هذا الجهد ، أنهم كَسَبُوا فلورين واحدًا أو خمسين كرتزر أو ثلاثة فرنكات أو ما أشبه ، فإنهم سينظرون بأمل في اليوم التالي لعله يأتيهم بحظ أفضل .

لقد أعْطَيناهم أملًا .

فهل يسأل أحد : من أين يأتي الطلبُ الذي يخلق السُّوق ؟ وهل من الضَّروريّ حقيقةً أن نُخبرهم مرة أخرى ؟

لقد أَشَرْتُ فيما سبق إلى أنه بواسطة نظام « المساعدة عن طريق العمل » فإن العائد يمكن أن يتضاعف خمسة عشر مرة ، وأن المليون يمكن أن ينتج خمسة عشر مليونًا ، وأن ألف مليون تنتج خمسة عشر ألف مليون .

قد يَصْدُق هذا في الحالات ذات المجال الصغير ، فهل يَصْدُق أيضًا على مجالات أكبر ؟ إن رأس المال بالتأكيد يُدِرّ عائدًا يتناقص بنسبة عكسية لنموه . ولكن رأس المال الخامل يدر هذا العائد المتناقص ، أما رأي المال النَّشط فإنه يأتي بعائد متزايد بطريقة باهرة ، وهنا تكمن المسألة الاجتماعية .

فهل أقرر حقيقة ؟ إنني أدعو اليهود كَشُهود على صحة كلامي . لماذا يُديرون صناعات كثيرة مختلفة ؟ ولماذا يُرْسلون الرجال ليعملوا تحت الأرض ليستخرجوا الفحم ، وسط مخاطر فادحة في مقابل أجور ضئيلة ؟

إنني لا أتخيَّل أن هذا شيء سَارٌّ ، حتى ولا بالنسبة لأصحاب المَنَاجِم ؛ لأنني لا أعتقد أن الرأسماليين لا رَحْمَة عندهم . أنا لا أَتَظاهر بالاعتقاد في هذا ، إنما أودّ ألَّا أُرَكِّزَ على الخلافات بل تهدئتها .

هل من الضروريّ تصوير ظاهرة الجمهرة وتركيز الجماهير في بقعة معينة

بالإشارة إلى الحج المقدس ؟ أنا لا أريد أن أجرح الحساسية الدينية لأحد بكلمات قد يساء تفسيرها .

سوف أُلمح فقط باختصار شديد إلى حج المحمديين[١] إلى مكة ، وإلى حج الكاثوليك إلى لوردز[٢] Lourdes ، وإلى أماكن أخرى كثيرة يعود منها الناس وقد ملأ الإيمان قلوبهم بالغبطة ، وإلى الصَّومعة المقدسة في تريير[٣] Trier .

وهكذا ، فإننا سنخلق أيضًا مركزًا للحاجات الدينية العميقة لشعبنا . وسيفهمنا حاخاماتنا أولًا ، وسوف يكونون معنا في هذا السبيل . سوف نَدَعُ كل إنسان يبحث عن خَلَاصِه « هناك » بطريقته الخاصة ، وفوق كل شيء وقبله سنهيئ مكانًا للمجموعة الخالدة من مفكرينا الأحرار ، الذين يصنعون دائمًا فتوحات جديدة للإنسانية .

لن نُمَارس القوة على أحد إلا بالقدر الضروريّ الذي يحافظ على الدولة وعلى النظام . هذه القوة اللازمة لن يحددها عشوائيًا سلطة واحدة أو أكثر من تلك السلطات المتغيرة ، بل يقررها قانون صارم .

والآن ، إذا كانت الصور التي قَدَّمْتُها ستجعل أناسًا يَسْتَخْلِصُون أن الجمهور يَنْجَذب بصفة مُؤَقَّتة فقط إلى مراكز العقيدة أو التجارة أو الترفيه ، فإنَّ الإجابة على اعتراضهم بسيطة ؟ فبينما أحد هذه الأهداف في حد ذاته

---

(١) هكذا اشتهر المسلمون بهذا الاسم في أوربا .

(٢) مدينة فرنسية .

(٣) مدينة في ألمانيا قرب الحدود مع لوكسمبرج .

سيجذب الجماهير دون ريب ، فإن هذه المراكز الجاذبة معًا ستكون في الحسبان بصفة دائمة لتجميع الجماهير وإشباعهم ؛ لأن هذه المراكز مجتمعة معًا تشكل هدفًا واحدًا عظيمًا أُمْعِن التفكير فيه طويلًا ، وطالما اشتاق شعبنا طويلًا للحصول عليه ، ومن أَجله حافظ شعبنا على حياته ، حافظ على حياته بالضغوط الواقعة عليه من الخارج ، إنه الوطن الحر .

عندما تبدأ الحركة سوف نَجْذب بعضَ الناس ، وسَنَدع آخرين يلحقون بنا ، وآخرون سيجرفهم التيار ، وسيُقحم في النهاية آخرون إقحامًا .

هؤلاء المستوطنون المترددون الذين سيصلون في النهاية ، سيكونون أسوأ الجميع سواء هنا أو هناك . أما الأَوائل الذين سيذهبون إلى هناك بعقيدة وحماس وشجاعة ، فسيحتلون أَفضل المراكز .

نسيجنا الإنسانيّ :

هناك أفكار خاطئة تَشِيع عن اليهود أكثر من أي شعب آخر . ولقد أصبحنا مُحْبَطين مكتئبين خلال معاناتنا التاريخية ، حتى أننا أنفسنا نكرر ونعتقد في هذه الأخطاء .

مثال ذلك : التأكيد على أننا نعشق المَشْروعات بشكل مُتَطَرِّف . ولكن من المعروف جيِّدًا عنا أننا سرْعان ما نتخلّى عن مشروعاتنا عندما يُسمح لنا أن نأخذ نصيبًا في الطبقات الصاعدة .

كما أن الغالبية العظمى من رجال الأعمال اليهود يُهَيِّئون لأبنائهم تعليمًا عاليًا ، ولعله من هنا جاء ما يسمى « تهويد » المِهَن الفكرية .

ولكن حتى في الدرجات الاجتماعية الأضعف اقتصاديًّا فإن حُبَّنا للتجارة

ليس مُسيطرًا كما هو مفترض بصفة عامة ؛ ففي الدول الشرقية بأوربا هناك عدد كبير من اليهود ليسوا تُجَّارًا ، وهم لا يعزفون عن مُمَارَسة العمل الشاق .

سوف تتمكن جمعية اليهود من إعداد إحصاءات علمية دقيقة لقُوانا البشرية ، فإن المهام الجديدة ومشروعات المستقبل التي تنتظر شعبنا في الوطن ستشبع احتياجات أصحاب الحرف اليدوية الحاليين ، وسوف تُحَوِّلُ كثيرًا من صغار التجار الحاليين إلى عمال يدويين .

إنَّ البائع المُتَجَوِّل الذي يرتحل في البلاد وعلى ظهره صُرَّةٌ ثقيلةٌ ليس راضيًا كما يتصوّر مضطهدوه . ولسوف يُحَوِّلُ نظام « السبع ساعات عمل في اليوم » كل الرجال من هذا النوع إلى عمال .

إنَّهم أُناس صالحون أُسِيءَ فَهْمُهم ، ولعلهم يتحمَّلون الآن من العَنَاء أكثر من غيرهم . وسوف تُعنىٰ جمعيةُ اليهود منذ البداية بتدريبهم على الصناعات اليدوية ، وسوف يشجّع حبهم للكسب بطريقة صحية .

إنَّ اليهود لديهم نزعة التدبير في المال والقدرة على التَّكَيُّف ، فهم مُؤَهَّلُون لأي وَسيلة من وسائل كسب العيش . ومن ثم سيكون كافيًا أن نجعل التجارة الصغيرة غير مُرْبِحة ، لكي نجعل حتى الجَوَّالين الحاليين يَتَخلَّون نهائيًّا عن هذا العمل .

يمكن إحداث هذا مثلًا بتشجيع أصحاب المحلات التجارية الكبرى التي توفر كل ضروريات العيش .

هذه المَحِلات العامة تقضي بالفعل على التجارة الصغيرة في المدن الكبرى . وفي أرض الحضارة الجديدة ستمنع ظهورها كلية .

كذلك فإنَّ إنشاء هذه المحلات الكبيرة لها مِيزة أخرى ؛ لأنها سُرْعان ما تجعل الوطنَ موضعَ جذبٍ لأناس احتياجاتهم الحياتية أعلى ذوقًا .

العادات :

هل الإشارة إلى العادات وَوَسَائل الرفاهية الصغيرة للإنسان العاديّ مما يتفق مع الطبيعة الجادة لهذا الكُتيب ؟ أعتقد أنها تتفق ، بل أكثر من ذلك أنها كبيرة الأهمية ؛ لأن هذه العادات الصغيرة هي الخيوطُ الدقيقةُ الرفيعةُ التي تصنع في مجموعها حبلًا لا يسهل قَطْعُه .

هنا بعضُ الأفكار المحدودة التي ينبغي التَّخَلِّي عنها . فمَن رأى من العالم شيئًا يعرف أن هذه التقاليد اليومية الصغيرة يمكن استزراعُها بسهولة في أي مكان .

إنَّ الابتكارات التكنولوجية لعصرنا ، والتي يعتزم هذا المشروع توظيفَها في خدمة الإنسانية ، قد استُخْدِمَتْ حتى اليوم بصفة أساسية من أجل عاداتنا الصغيرة .

فهناك فنادق إنجليزية في مصر ، وعلى قِمَم الجبال في سويسرا ، وَمَقاهي فيينا موجودة في جنوب إفريقيا ، ومَسَارح فرنسية في روسيا ، وأُوبرا ألمانية في أمريكا ، وأَفضل بيرة بافاريه في باريس .

وعندما نرحل من مصر مرَّة أُخرى فلن نترك خَلْفَنا ملذاتِ الحياة .

كل إنسان سيجد عاداتِه مرةً ثانيةً في المجموعة المحلية ، ولكنها ستكون أفضلَ وأجملَ وأكثرَ مَسَرَّةً عن ذِي قبل .

۞ ۞ ۞ ۞

٤

جمعية اليهود والدولة اليهودية

إدارة العمل[1] :

هذا الكُتيِّب ليس مُوَجَّهًا للمحامين ، ولذا فإنني سوف أَلْمَس لَمْسًا عابرًا - كشأن أشياء كثيرة أخرى - نظريتي في الأساس القانونيّ للدولة .

وعلى الرغم من ذلك فيجب أن أَضَع بعض التأكيد على نظريتي الجديدة ، التي أعتقد أنه يمكن مُسَانَدتها ، حتى في المناقشة مع رجال ضالعين في فلسفة القانون .

طبقًا لرُوسُّو ، الذي أَصبحت نظريته الآن ذات قيمة تاريخية ، تقوم الدولة بمقتضى عقد اجتماعيّ .

يقول رُوسُّو « إن شروط هذا العقد محددة تحديدًا دقيقًا بمقتضى طبيعة الاتفاق بحيث إن أقل تغيير يجعلها باطلة ولاغية ، ويترتب على ذلك أنه حتى عندما لا تكون هذه الشروط معلنة بوضوح ، فإنها متطابقة في كل مكان ، ومقبولة ومعترف بها ضمنًا في كل مكان » .. إلخ .

إِنَّ الاعتراض المنطقيّ والتاريخيّ على نظرية رُوسُّو لم يكن وليس الآن صَعْبًا مَهْمَا يكن مُفْزِعًا ومهما كانت نتائجه بعيدة المدى .

إِنَّ مسألة وُجُود عَقْد اجتماعيّ - مع « شروط غير معلنة بوضوح ، ومع ذلك غير قابلة للتعديل » - قبل صياغة دستور أم لا ، ليس موضع اهتمام عملي من جانب دول تحت أشكال جديدة من الحكومات .

ومهما يكن الأمر فإن العلاقة القانونية بين الحكومة والمواطنين أصبحت الآن مُقَرَّرة تقريرًا واضحًا .

---

(١) تبدو ثقافة هرتزل القانونية في هذا الجزء واضحة . (**المترجم**) .

لكن قبل صياغة الدستور وأثناء خَلْق دولة جديدة تكتسب هذه المبادئُ أهمية عملية كبيرة .

إننا نعلم ونَرَى أَمامنا دُولًا لا تزال مُستمِرّة في النُّشُوء ، مستعمرات انشقَّت من الدولة الأم ، أَتباع ينفصلون عن حاكمهم الإقطاعيّ ، أراضٍ تم فتحها حديثًا تُشَكِّل على الفور دولًا حرَّة .

حقًّا إن الدولة اليهودية يمكن تصور أنها تركيبة جديدة ومميَّزة ، وعلى أرض غير مُحَدَّدة . إلا أن الدولة لا تتشكل بواسطة قطعة من الأرض ، ولكن بواسطة عدد من الناس مُتَّحِدين تحت سُلْطة سِياديّة .

الشعب هو الأساس الذاتيّ للدولة ، والأرض هي الأساس الموضوعيّ لها . والأساس الذاتيّ هو أَهم الاثنين ، فعلى سبيل المثال : هناك سلطة ليس لها أَساس موضوعيّ على الإطلاق ، هي على الأرجح الأكثر احترامًا في العالم ، وأنا هنا أشير إلى السلطة البابوية .

النَّظرية العقلية هي النظرية المقبولة الآن في علم السياسة .

هذه النظرية كافية لتبرير إقامة دولة ، ولا يمكن دحضها تاريخيًّا بنفس السهولة التي فَنَّدْنا بها نظرية العقد .

إنني طالما كُنت مَعْنيًّا فقط بإقامة دولة يهودية ، فأنا داخل حدود النظرية العقلية ، أما عندما أتعرّض للأساس القانونيّ للدولة فأنا أتجاوز هذه الحدود .

إنَّ نظريات المؤسسة الدينية ، أو القوة العظمى ، أو العقد ، والنظرية الأبوية والإرثية – كلها لا تتفق مع الفكر الحديث ؛ فالقاعدة القانونية للدولة : إِمَّا أن يُنْظَر إليها بمغالاة شديدة من خلال الأشخاص كالنظرية الأبوية أو نظرية القوة

العظمى أو نظرية العقد .

وإما يُنْظَر إليها نظرة مغالية في الاستعلاء كنظرية المؤسسة الدينية .

وإما يُنْظَر إليها نظرة مغالية في الدونية كالنظرية الإرثية الموضوعية . إن النظرية العقلية تترك هذا السؤال بدون إجابة شافية دقيقة .

ولكن هناك سؤال يشغل اهتمام أساتذة القانون في كل العصور ، ولا يمكن أن يكون سؤالًا عقيمًا بصفة مطلقة . في حقيقة الأمر ، هناك مزيج مما هو إنسانيّ وما هو فوق الإنسانيّ في إنشاء دولة .

هناك قاعدة قانونية لا يُمكن الاستغناء عنها لإيضاح العلاقة القهرية بعض الشيء ، والتي بمقتضاها يخضع الرَّعايا للحكام .

أنا أعتقد أن هذه القاعدة يُمكن أن تُوجد فيما يُسَمَّى « Negotiorum gestio » إدارة العمل ، يمثل فيها مجموع المواطنين أصحاب العمل ، وتُمَثّل الحكومة مدير هذا العمل .

لقد أنتج الرومان بإحساسهم الرَّائع للعدالة هذه القطعة النبيلة « نجونيوروم جستيو » ، فحينما تكون ملكية شخص مَا مُضطهد في خطر يتقدَّم رجل ما لإنقاذها ، هذا الرجل هو « الكفيل » الذي يَتَطَوَّع لإدارة شؤون عمل ليس من أملاكه ، إنه لم يَتَلقّ تفويضًا ، أعني تفويضًا بشريًا ، إنما شُعُوره الرفيع بالواجب يُعْطِيه الصَّلاحية لكي يَتَصرَّف . هذه الالتزامات الرَّفيعة بالنسبة للدولة يمكن صياغتها بأَساليب مختلفة ، لكي تستجيب لدرجة الثقافة التي خصها الأفراد لنمو القوة العامة للإدراك . يقصد بـ « الكفيل » أن يعمل لصالح أصحاب العمل . في الناس الذين ينتمي إليهم الكفيلُ نفسُه .

يَتَوَلّىٰ « الكفيل » إدارة الملكية التي هو شريكٌ في ملكيتها ، وملكيته المشتركة تؤهله للتدخل الضَّروريّ عند الظروف العاجلة . وتَتَطَلّب قيادته في السلم والحرب .

ولكن لا يمكن أن تكون سلطته ملزمة لمحو كونه شريكًا في الملكية . إن رضاء الملاك المشتركين العديدين حتى تحت أفضل الظروف مسألةِ فيها نظر .

إنَّ الدولة تُولَدُ من خلال صراع الأمة من أجل الوجود . وفي مثل هذا الصّراع من المستحيل الحُصُول على تفويض مُنَاسب وبطريقة مُفَصَّلة سَلَفًا .

وفي الحقيقة فإن أَيّ محاولة مُسْبَقة للحصول على قرار منظم من الأغلبية قد يهدم المشروع وهو في بدايته .

فالانشقاق من الداخل قد يترك الناس بلا حماية تجاه الأخطار الخارجية .

إننا لا يمكن أن نكون جميعًا على فكر رجل واحد ، ولذلك فسيأخذ « الكفيل » القيادة في يده ببساطة ويَنْطَلق في المقدمة .

إنَّ تَصَرُّف « كفيل » الدولة يُصْبح مُبَرَّرًا تبريرًا كافيًا إذا أضحى الهدف المُشْتَرك في خطر ، وبدا أَصحاب الشأن غير قادرين على مساعدة أنفسهم ، إما بسبب فُقْدان الإرادة أو لأسباب أخرى .

ولكن « الكفيل » يصبح بتدخله مثل أصحاب الشأن ، مقيدًا بالاتفاق الذي يشبه العقد .

هذه هي العلاقة القانونية القائمة قبل ، أو على الأَصَحّ التي نشأت في نفس الوقت مع نشوء الدولة .

وهكذا يُصْبح مَسْئُولًا عن كل شكل من أشكال الإهمال ، حتى عن إخفاق

أَعمال المشروعات وعن إِهمال تلك الشؤون المُتَّصِلة بها اتصالاً وثيقًا .. إلخ . إِنَّني لن أُطيل في الحديث عن « إدارة العمل » بل أُفضل تركَها للدولة حتى لا نذهب بعيدا عن الموضوع الأساسيّ أكثر مما ينبغي .

هناك ملاحظة واحدة « ستكون إدارة العمل فعالة تمامًا إذا كان المَالِك قد وَافَق عليها ، كأنما هي قد نُفذت أصلًا بواسطة سلطته » .

والآن ، كيف يُؤَثِّر هذا كله على حالتنا ؟

إنَّ الشعب اليهوديّ مَحْرُوم حاليًا – بسبب وُجُوده في حالة الشَّتات – من إدارة شؤونه السياسية بنفسه .

إلى جانب ذلك فإن اليهود في حالة من العُسْر الشديد – قَلَّت أَو كَثُرت – في أجزاء شتى من العالم . إنهم يحتاجون – قبل كل شيء – إلى كفيل . هذا الكفيل لا يمكن بطبيعة الحال أن يكون فَرْدًا وَاحِدًا ، فإن مثل هذا الفرد إما أن يَجْعل نفسه موضع سُخْرية ، أَو باعثًا على الاحتقار إذا بدا أنه يُحَقِّق مَصَالحه الخاصة .

إن كَفِيل اليهود ينبغي أن يكون هيئة عامة ، وتلك هي « جمعية اليهود » .

كفيل اليهود :

نتعرَّض هنا لأَداة الحركة القومية من حيث طَبيعتها ووظائفها التي سنتعامل معها في النهاية ، إِنَّها في الحقيقة يجب أن تنشأ قبل أي شيء آخر . تَكْوينها بالغ السُّهولة . إِنَّها سوف تَتَشَكَّل على أَيدي أُولئك اليهود النشطين الذين أطلعتهم على مَشْروعي في لندن(١) .

---

(١) ألقى د . هرتسل خطابا في اجتماع نادي المكابيين Maccebean Club بلندن الذي ترأسه إسرائيل زنجويل Israel Zangwell في ٢٤ نوفمبر ١٨٨٥ .

سَيَكُون لدى الجمعية مُهِمَّات علمية وسياسية لإنشاء الدولة اليهودية – كما أتخيلها ، وأنا أفترض مُسْبقًا أن تُطَبّق الجمعية المَنَاهج العلمية . فلن نَرْحل اليوم من مصر بالطريقة البدائية التي رَحَلْنَا بها في العُصُور القديمة . إننا سوف نحصل مسبقًا على إحصاءات دَقيقة لعددنا وقوتنا .

إنَّ الإنجاز الذي حققه الكفيل القديم والعظيم في العصور البدائية بالنسبة لكفيلنا المعاصر يشبه النسبة بين اللحن الفَرْدِيّ المُبْدع إلى العمل الأوبرالي الحديث .

إننا نَلْعب نفس اللحن مع كثرة من الفيولين ، والفلوت ، والهازب ، والفيولنسل ، والباس ، ومع الإضاءة الكهربية والديكورات ، والكورس ، والملابس الجميلة ، وأفضل المغنين في عصرهم .

هذا الكُتيِّب مَعْنِيٌّ بفتح باب المناقشة في « المشكلة اليهودية » ، وسيشترك في هذه المناقشة الأصدقاء والأعداء على السَّواء .

ولكني آمل ألاَّ تأخذ المناقشة شكل السِّباب العنيف أو التَّبرير العاطفيّ ، بل مُنَاظرة ذات طابع علميّ جاد وسياسيّ .

وستجمع جمعية اليهود تَصْريحات السياسيين والبرلمانات والتجمعات اليهودية ، والجمعيات ، سواء عُبِّر عنها في أحاديث أو كتابات أو في اجتماعات أو في صُحُف أو كُتُب .

وهكذا ستكشف الجمعية لأول مرة عما إذا كان اليهود حقيقة يرغبون في الذهاب إلى أرض الميعاد ، وعما إذا كان يجب عليهم أن يَذْهَبُوا .

وسترسل كل جَمَاعات اليهود في العالم إِسهاماتها إلى الجمعية من أجل

الحَصْر الشامل لإحصاءات اليهود .

وهناك مَهَام أُخرى مثل بُحُوث الخبراء في الوطن الجديد ، وثَرَواته الطبيعية والتَّخطيط الموحد للهجرة والاستيطان ، والأَعمال المبدئية في التشريع والإدارة .. إلخ . كل هذا ينبغي أن ينبثق بطريقة عقلانية من المشروع الأصليّ .

أمَّا خارجيًّا ، فستحاول الجمعية – كما أَوْضَحْتُ من قبل في الجزء العام من هذا الكُتَيِّب – الحُصُول على الاعتراف باعتبارها سلطة لإنشاء دولة .

إنَّ الموافقة المُطْلَقة للكثرة اليهودية سيمنح الجمعية الصلاحيات اللازمة فيما يتصل بعلاقتها مع الحكومات .

أَمَّا داخليًّا ، أعني علاقتها بالشعب اليهوديّ ، فستخلق الجمعية كل المؤسسات الأولية التي لا يمكن الاستغناء عنها ، وستكون هذه المُؤَسَّسَاتُ هي النواة التي ستتطور منها المؤسسات العامة للدولة اليهودية فيما بعد .

لقد ذَكَرتُ من قبل أَن أوَّل أهدافنا هو السِّيادة – التي يَضْمَنها لنا القانون الدَّوليّ – على قطعة من الأرض ذات مساحة كبيرة كافية لتحقيق متطلباتنا العادلة .

فما هي الخطوة التالية ؟

احتلال الأرض :

عندما هَامَت أُمَم على وَجْهِها في الزَّمن القديم كانوا يَدَعون الصُّدفة تحملهم ، وتُجَرْجِرُهم ، وتَقْذِفُ بهم هنا وهناك ، وكأسراب الجراد يَحُطُّون في أي بقعة من الأرض كيفما اتفق ؛ ذلك لأَنَّه في الزمن القديم كانت الأرض

مجهولة بالنسبة للإنسان ، أمَّا هذه الهجرة الحديثة لليهود فلابد أن تَجْري وَفْقَ مبادئ علمية .

مُنْذ ما لا يزيد عن أربعين عامًا مضت كان البحث عن الذَّهب يجري بطريقة بالغة البدائية .

فكم كانت أيام كاليفورنيا مَليئة بالمغامرات ! جَرَى جَلْب المغامرين تباعًا من أنحاء الأرض ، فَسَطُوا على قِطَع من الأرض ، وسَرَقُوا الذَّهب بعضهم من بعض ، وفي النهاية ضَيَّعوه على مَوَائِد القمار كما يفعل اللصوص في العادة .

واليوم ، كيف يجري البحث عن الذهب في ترانسفال ؟

المُغَامِرون والأَفَّاقون ليسوا هناك ، إنَّما الجيولوجيون والمهندسون الموقرون وحدهم في الموقع لتنظيم صناعة الذهب . إنهم يستخدمون آلات مُتَطَوِّرة في فصل الذهب الخام من الصخور المُحِيطة به ، القليل جدًّا متروك للصُّدفة الآن .

وهكذا علينا أَن نبحث وأن نمتلك الوطن اليهودي الجديد ، مستخدمين كل ذريعة حديثة .

وحالما نَضْمَن الأَرض ، فسنرسل سفينة إلى هناك على ظهرها ممثلو كل من الجمعية والشركة والمجموعات المحلية ، الذين سيدخلون في ملْكِيّتها على الفور .

هؤلاء النَّاس أمامهم ثلاث مَهَام لإنجازها :

١ - البحث العلميّ الدَّقيق لجميع الثروات الطبيعية للوطن .

٢- تنظيم إدارة مركزية صارمة .

٣ - توزيع الأرض .

هذه المَهَام الثَّلاثة تتداخل بَعْضها مع بعض ، وسوف يتم إنجازها جميعًا وَفْقًا للهدف المَطْروح الذي أصبح معروفًا لنا الآن .

هناك أَمْرٌ واحد يحتاج إلى شرح ، وأعني به كيف يتم احتلال الأرض بالنسبة للمجموعات المحلية .

في أمريكا كانت طريقة احتلال الأرض الجديدة المَفْتُوحة طريقة بدائية ، حيث يَتَجَمَّع المستوطنون على الحدود ، وفي وقت مُحَدَّد يندفعون جميعًا في وقت واحد بعنف لاحتلال الجزء الذي يَقْدِرُون عليه .

إننا لن نَتَّبع هذا الأسلوب في الأرض الجديدة لليهود .

فإن قِطَع الأراضي بالأقاليم والمُدُن سَتُبَاع في مزاد علنيّ ، وسيُدْفع ثمنها عملًا وليس نُقُودًا .

وستكون الخُطَّة العامة قد اكتملت فيما يتعلّق بالطرق والكباري ومحطَّات تَزْويد المياه ، وغيرها مما هو ضَروريّ للتِّجارة .

هذه كلها سَتَتَوحّد في أقاليم ، وفي داخل هذه الأقاليم ستباع مواقع المدن أيضا بالمزاد العلنيّ .

وستتعهد المجموعات المَحليّة بالقيام بتجارة العقارات ، وسوف تُغَطَّى تكاليفُها عن طريق تَقْديرات مفروضة على المشترين . وستكون الجمعية قادرة على أن تحكم ما إذا كانت المجموعات المحلية لا تُجَازِف بتضحيات أكثر من إمكاناتها .

وسوف تحصل التَّجَمُّعاتُ الكبيرةُ على قطع كبيرة تَكْفِي لأنشطتها ، وهكذا ستمنح المؤسسات مثل الجامعات والمدارس التكنولوجية

والأكاديميات ومعاهد البحوث تضحيات كبرى ... هذه المَعَاهد الحكومية لا يجب أن تتركز في العاصمة بل ستوزع في أنحاء الدولة .

والذي سيضمن تحقيق الفائدة مما تمَّ الحصول عليه هو المصلحةِ الشخصية للمشترين ، وإذا كان ضروريًّا يجري التقييم المحلي لتلك الممتلكات .

ولما كنا لا نستطيع ، وبالتأكيد لا نرغب في طمس الاختلافات بين الأفراد ، فستبقى الاختلافات بين المجموعات المحلية أيضًا .

وسوف يتشكل كل شيء بطريقة طبيعية ، وسيتم حماية جميع الحقوق المُكْتَسَبة ، وسيفسح المجال لكل تطوير جديد .

وسوف يتم إِعلامُ شعبنا إعلامًا مُفَصّلًا بجميع هذه الأمور .

ولن نأخذ الآخرين على غَيْر وَعْي منهم أو نضللهم ، بِقَدْر مَا نَحْرِص على ألا نَخْدَع أنفسنا . كل شيء يجب أن يَسْتَقِرّ بطريقة نِظامية في وقتٍ سابق .

أُشير هنا فقط لهذا المشروع : فسيعكف أكثر مُفَكِّرينا ذكاء على التفكير فيه . وكل إنجاز اجتماعيّ أو تكنولوجيّ في عصرنا هذا أو في العصر القادم – أمام التنفيذ البطيء لمشروعي – ينبغي تَوْظِيفه لهذا الهدف .

وكل اختراع ذِي قيمة سواءً كان موجودًا الآن أو سَيُوجد في المستقبل ، ينبغي الاستفادةُ به .

بهذه الطريقة يُمكن احتلالُ الأرض وإقامةُ الدولة ، بأُسلوب لم يعرفه التاريخُ حتى الآن ، وبإمكانات نجاح لم يَحْدُث مثِلها من قبل .

الدستور :

إنَّ أحد المَهَام الكبرى التي يتعيَّن على الجمعية إنجازُها هو تَعْيين مجلس من

رجال القانون في الدولة ، هؤلاء عليهم أن يَصُوغوا أفضل دستور حديث مُمْكِن .
وأرىٰ أن الدستور الجيّد يجب أن يكون على درجة معقولة من المرونة .

لقد أوضحتُ مُفَصِّلًا في مكان آخر أي أشكال الحكومات أرىٰ أنَّها الأفضل ، حيث أرىٰ أن الملكِيّة الديمقراطية والجمهورية الأرستقراطية هما أَروع أَشكال الدولة ، ففيها شكل الدولة ومَبْدأ الحكومة مُتَعَارِضَان ، ومن هنا يأتي التَّوازن الصحيح للقوة .

إنني مُؤيِّد وفِيٌّ للمؤسسات المِلْكِية ؛ لأنها تسمح باستمرارية السياسة ، وتمثل مَصَالح الأسر الشهيرة في التَّاريخ ، أولئك الذين وُلِدُوا وتَعَلَّموا لكي يُمَارِسُوا الحُكْم ، وَرَغَباتهم محكومة بالحفاظ على الدولة .

ولكن تَاريخنا تَقَطَّعت فيه السُّبُل أحقابًا طويلة ، بحيث لا نستطيع استئناف الأشكال الدستورية القديمة ، دون أَن نُعَرّض أنفسنا للاتهام بالغموض .

إنَّ ديمقراطية بدون سلطة مُتَوازنة ونافعة ، مفتوحة لأَقصى النقيضين من تقدير وإِدانة ، من شَأنها إضاعة الوقت في مناقشات برلمانية ، وإنتاج ذلك النوع الكريه من الناس ، السِّياسيين المحترفين .

كذلك فإنَّ الأمم ليست في حقيقة الأمر مُهَيّأة لديمقراطية غير مَحْدُودة في الوقت الراهن ، وسَتصبح أَقلّ تهيئًا لها أكثر وأكثر في المستقبل ؛ لأَن الديمقراطية الخالصة تفترض مُسْبقًا شُيوع تقاليد بسيطة ، وتقاليدنا مع الأيام أَصْبَحت أكثر تعقيدًا بنمو التجارة وتزايد الثقافة .

قال « منتسكيو » الحكيم : « إنَّ النّزعة إلى الديمقراطية هي الفضيلة » .
فأَين هذه الفضيلة ، أَعني الفضيلة السياسية .. أين نُصَادفها ؟ إنني لا أَثق في

فضيلتنا السياسية ؛ أولًا لأننا لسنا أفضل من بقية البشر المعاصرين ، وثانيًا لأن الحرية ستجعلنا نُبرز مَوَاهبنا في العراك قبل أي شيء آخر .

كذلك فَإِنَّني أرى أن إقرار قضية ما عن طريق الاستفتاء العام إجراء غير مقنع ، إذ لا يوجد هنالك أَسئلة سياسية بسيطة يمكن الإجابة عليها بمجرد : نعم أو لا . كما أن الجَمَاهير أيضًا أكثر نُزوعًا – ربما أكثر من البرلمانات – إلى أن تنجرف بعيدًا مع الأفكار المَارِقة ، كما يُفقدها التفويضُ القويُّ توازُنَها .

ومن المستحيل أن تُصاغ سياسة داخلية أو خارجية حكيمة في جمعية عامة . إنَّ السياسة يجب أن تتشكل في إطار الطَّبقة العليا ثم تعمل نزولًا إلى الطبقات الأدنى . ولكن لن يَمَسّ الجور أبناء الدولة اليهودية ، فَكُلّ إنسان سيكون مُقتدرًا ، وسيكون راغبًا في الارتقاء فيها .

وهكذا سَيَسْري في شعبنا نُزُوع إلى الارتقاء ، وكلما حاول فرد الارتقاء بنفسه سيرفع معه مجموع المواطنين ، وسيأخذ الصعود شكلًا أخلاقيًا يفيد الدولة ويَخْدِم الفكرة القومية . ومن ثَمَّ فَإِنَّني أَمِيل إلى جمهورية أرستقراطية ، ولعلَّ هذا يُرْضي الرّوح الطموحة لِشَعْبنا التي انحطت الآن إلى تفاهة مُؤْسِفة .

وتمرُّ الآن في خاطري كثيرٌ من مُؤَسَّسَات فينيسيا ، ولكن كل ما قد تسبب منها في انهيار فينيسيا يجب تجنبه بعناية ، فسنتعلم من الأَخطاء التاريخية للآخرين ، كما نستفيد بنفس الأُسلوب من أخطائنا .

فنحن أُمَّة جديدة ، ونَوَدُّ أن نكون أَحْدَث أُمَم العالم .

إنَّ شعبنا الذي سَيَتَسَلّم الأرض الجديدة من الجمعية ، سيتقبل أيضًا بشكر الدستورَ الجديدَ الذي ستمنحه لهم .

فإذا بَرَزَت مُعَارضة ما فستُخْمِدُها الجمعية .

فالجمعية لا يمكن أن تَسمح - في ممارسة وظائفها - أن يقوم بتفسيرها أفرادٌ قصارُ النظرِ أو مُتَحَامِلون .

اللغة :

قد يرىٰ البعضُ أن حاجتنا إلى لُغَة جارية مشتركة يمثل صُعوبة .

إننا لا نستطيع التَّخاطب بعضنا مع بعض باللغة العِبْرية ، فمن منا لديه معرفة كافية لِيطلب تذكرة قطار باللغة العبرية . مثل هذا الأمر لا يمكن حُدُوثه .

ومع ذلك فالمشكلة يمكن التَّغلب عليها بسهولة . فكل شخص يُمْكنه أن يحتفظ باللغة التي تحمل أَفكاره بيُسْر . وَتقدِّم إلينا سويسرًا برهانًا قاطعًا على إمكانية تعدد اللغات في اتِّحاد فيدرالي . سوف نَبْقى في الوطن الجديد كما نحن الآن ، ولن نتوقف عن الاعتزاز في أَسًى بِذكرياتنا في البلاد التي أُخْرِجْنَا منها .

سوف نتخلص من تلك الرَّطانات البائسة المتحجرة ، لغات « الجيتو » التي لا نزال نستعملها ، فقد كانت هي اللُّغة الخفية للسُّجَناء .

إنَّ مُعَلِّمينا القوميين سوف يهتمون بهذه المسألة ، واللغة التي تُثْبت أنها أكثر نَفْعًا في العلاقات الاجتماعية العامة ، سوف نتبناها بدون إكراه كَلُغة قومية . إنَّ جنسنا غريب فريد ، فليس يجمع بيننا إلا عقيدة آبائنا(١) .

---

(١) مثال على العبارات الانفعالية التي تعن لهرتسل ، نجدها في مواقع كثيرة من النَّص مما يربك السياق أحياناً. ولكنها إذا وضعت في ميزان المنطق ، فإنها ستبدو متناقضة مع أقوال سابقة لهرتسل في نفس النص تذهب إلى أنَّ المُعَاناة المشتركة بسبب العداء للسامية هي التي تجمع اليهود وتوحدهم . (المترجم) .

حكومة ثيوقراطية :

هل سننتهي إلى حكومة ثيوقراطية[١] ؟

لا بالتأكيد . إنَّ العقيدة تَجْمَعُنَا والمعرفة تَمْنَحُنا الحرية . ولذلك سنمنع أي اتِّجاهات ثيوقراطية تَتَصَدَّر قيادتنا من جانب الكهنوت . سوف نحصر كهنتنا داخل حُدود المعابد ، كما سَنَحْصُر بالمِثْل جَيْشَنا داخل حدود معسكراته .

لسوف يَلْقَى جيشنا وكَهَنَتنا منَّا كل احترام رفيع بقدر ما تستحقه وظيفتهما القيمة ، ولكنهما لا يجب أن يَتَدَخَّلا في إدارة شؤون الدولة التي تَخْلَع عليهما مكانة سامية ، وإلا فَسَيجلبان علينا صُعوبات في الداخل والخارج .

كل إنسان سيكون حُرًّا دُون منازعة بسبب العقيدة أو لِقلة إيمانه أو لجنسيته . وإذا حَدَث وَجاء أُنَاسٌ من عَقَائد مُخْتَلِفة أو جِنْسِيّات أُخرى ليعيشوا معنا ، فسوف نَمْنَحُهم حماية مُشَرفة ومُسَاواة أَمام القانون ، لقد تَعَلَّمنا التَّسَامُح في أوربا . إنني لا أَقُول هذا على سبيل التَّهَكُّم ؛ لأَنَّ العداء للسامية اليوم يمكن أَن يُنْسَب إلى عدم التَّسَامُح الدِّينيّ في عَدَد قليل فقط مِن الأَماكن ، لكنه في معظمه حركة بين الأمم المُتَحضِّرة يُحَاول أَبناؤها مُطَاردة أشباح مَاضِيهم .

القوانين :

عندما تقترب فكرة « الدولة » من التَّحقُّق ، فإن جمعية اليهود ستقوم بتعيين مجلس من رجال القانون للقيام بالأعمال التمهيدية للتشريع ، وسوف يتصرَّف هؤلاء – خلال الفترة الانتقالية – على أساس أَن يُحَاكم كل يهوديّ مُهاجر طبقًا لقوانين الدولة التي جاء منها .

---

(١) المقصود حكومة يحكم فيها رجال الدين . (المترجم) .

ولكن عليهم أن يُحاولوا إيجاد وحدة من هذه القوانين المختلفة لتأليف نظام تشريعيّ حديث ، يقوم على أفضل قَدْر من الأنظمة السابقة ، ولعله يُصْبح نمُوذجًا للتقنين الذي يحتضن جميع المطالب الاجتماعية العادلة في الوقت الراهن .

الجيش :

إنَّ الدَّولة اليهودية مَنْظُور إليها باعتبارها دَوْلة مُحَايدة ، ومن أجل ذلك يَلْزَمُها فقط جيش مُحْتَرِف ، مُسَلَّح - بطبيعة الحال - بكل مُتَطَلَّبات الحرب الحديثة ، للحفاظ على النظام في الداخل والخارج .

العَلم :

ليس لدينا عَلَم ونحن في حاجة إلى ذلك . فإذا كنا نريد أن نَقُود عددًا من الرجال ، فلا بد أن نَرْفَع رمزًا فوق رؤوسهم ، وأنا أقترح علمًا أبيض به سبع نجوم ذهبية . الخلفية البيضاء تَرْمُز إلى حياتنا الجديدة النقية ، أما النُّجوم السَّبع فهي السَّبع ساعات الذَّهبية للعمل اليوميّ ؛ لأَننا سوف نَسِيرُ إلى الأرض الموعودة حَاملين شَارة الشَّرف .

معاهدات تَبَادل الامتيازات وتَسْليم المجرمين :

إنَّ الدولة اليهودية يجب أَن تُؤَسَّس تأسيسًا سليمًا ، بالنظر إلى مركزنا المُستقبليّ المُشَرِّف في العالم . ومن ثَمَّ فكل التزام في البلد القديم ، لا بد من تحقيقه بدقة منفصلة قبل الرحيل . وسوف تُتِيح الجمعية اليهودية والشركة اليهودية سَفَرًا رَخيصًا وميزات أخرى ، عند التَّسويات النهائية لأولئك الذين يستطيعون أن يُقَدِّموا شهادة رسمية من السُّلطات المحلية ، تَشْهد بأنهم تَرَكوا

أعمالهم في حالة جيِّدة .

وكل طَلب شَخْصيّ عادل ناشئ من الدولة المَشْروكة ، ستكون الدولة اليهوديةُ مستعدة للنَّظر فيه بترحاب أكبر منه في أي دولة أخرى .

ولن ننتظر من أَجل تَبَادل الامتيازات . وسوف نعمل من أجل شَرَفنا الشّخصيّ بكل ما تحمله الكلمة من مَعَانٍ .

وهكذا ، لعلنا نجد فيما بعد أن المَحَاكم ستكون مستعدة لِسَمَاع مَطَالبنا ، أكثر مما يبدو أنها تفعله الآن في بعض الأماكن .

سوف يُسْتَخْلَص ، كأمر مُسَلَّم به ، من كلامي السابق أننا سنكون أكثر استعدادًا من أي دولة أخرى لتسليم المُجرمين اليهود ، حتى يأتي الوقت الذي نستطيع فيه أن نُطَبِّق قانون عقوبات خاص بنا ، قائما على نفس المبادئ التي تتبعها جميع الأُمم المتحضرة الأخرى ، ولذلك سيكون هناك فترة انتقالية سوف نتسلم أثناءها مُجْرِمينا ، بعد أن يكونوا قد تلقوا العقوبات المناسبة .

ولما كانوا قد دفعوا ثمن جرائمهم ، فسوف نستقبلهم بدون قُيود على الإطلاق ، لأن مُجرمينا أيضًا يجب أن يدخلوا الحياة الجديدة .

وهكذا قد تصبح الهجرة لكثير من اليهود كارثة ذات نهاية سعيدة .

ستتغير الظروف الخارجية السيئة التي حَطَّمت كثيرًا من الأشخاص ، وقد يعني هذا التغيير الخلاص لكثير من الضالين .

أَوَدُّ فيما يلي أن أحكي باختصار قصة صادفتني في سياق أخبار مناجم ذهب ويتووترز راند Witwatersrand ، فقد جاء في أحد الأيام رجل إلى « راند » Rand واستقر هناك وجرَّب نفسه في أعمال كثيرة ، فيما عدا البحث

عن الذهب ، حتى أنشأ مَصْنعًا للثلج تحقق له النجاح ، وسُرعان ما اكتسب احترامًا عامًّا لِمَسْلكه المُهَذَّب . ولكن بعد عدة سنوات قُبِضَ عليه فجأة . كان قد قام بالتلاعب في الأموال وهو موظَّف في بنك فرانكفورت ، وهرب ليستأنف حياة جديدة تحت اسم مُنْتَحل . وعندما اقتيد للسجن ظهر وُجَهاء البلدة لِيُودِّعوه بقلوبهم ويُلَوِّحُوا له : مع السَّلامة ؛ لأَنه لا بد أن يعود إليهم ، ما الذي لم تكشف عنه هذه القصة !

إنَّ الحياة الجديدة يمكن أن تَمْنح الشخص روحًا جديدة ، حتى المُجْرمين . وعندنا من هؤلاء عدد قليل نسبيًّا .

هناك بعض إحصاءات مُشَوِّقة في هذه النقطة تستحق القراءة بعنوان « جرائم اليهود في ألمانيا » من تأليف دكتور « ب . ناثان » من برلين الذي كُلِّف من قِبَل « جمعية الدفاع ضد العداء للسامية » لجَمع إحصاءات مُؤَسَّسة على التقارير الرَّسمية .

ومن الحق أن يُقال : إن هذا الكُتَيِّب - الذي يَغُصُّ بالأرقام - كان وراء إصداره دوافع عديدة أخرى ، منها ذلك الخطأ الذي يزعم أنَّ العداء للسامية يمكن تفنيده عن طريق المحاجّة المَعْقُولة ، لكننا قد نكون مَكْروهين لمواهبنا بقدر ما نحن مكروهين لأخطائنا .

مَنافع هجرة اليهود :

أَتَصَوَّر أن الحكومات - سواء تطوعيًّا أو تحت ضُغوط من أعداء السامية - سوف تُعْطِي هذا المشروع اهتمامًا خاصًّا ، ولعلها تستقبله هنا وهناك بتعاطف سَيُبْدُونَه أيضًا لجمعية اليهود .

إنَّ الهجرة التي أَقْتَرِحُها لن تَخْلق أَزمة اقتصادية . ومثل تلك الأزمة التي تعقب إيذاء اليهود في كل مكان ، يمكن من خلال تنفيذ خطتي . ولعل فترة عظيمة من الازدهار قد تَبدأ في البلاد التي هي الآن ضد السَّامية . حيث يكون هناك – كما ذكرتُ مكررًا – هجرة داخلية من المواطنين المسيحيين إلى المراكز التي أخلاها اليهود ، تتم على مَهَل وبأُسلوب منظم . فإذا لم يكن نَصِيبُنا هو المُعَاناة فقط – بل قُدِّمَتْ إلينا مُسَاعدات فعلية تعيننا على التنفيذ – فسيكون للحركة أثر نفعيّ عام .

إنَّها وجهة نظر ضَيِّقة لا بد أَن يَتَخَلَّص منها الإنسان ، تلك التي ترىٰ في رَحيل الكثرة اليهودية نتيجة طبيعية لإفقار البلاد .

فالأمر يختلف بين الرَّحيل الذي هو نتيجة الاضطهاد ، حيث تُخرَّبُ الممتلكات هنا كما تُخَرّب أثناء اضطرابات الحروب ، وبين الرَّحيل السِّلميّ التَّطَوعيّ للمستعمرين الذي يُراعى فيه الحقوق المُكْتَسَبة ، مع الالتزام التام بالقانون ، رَحيل مَفْتُوح في وَضَح النَّهار ، وتحت أَعْيُن السلطات ورقابة الرأي العام .

إنَّ الحركة اليهودية يمكن أن تُوقِف بشكل تام هجرة العمال المَسيحيين إلى مختلف بقاع العالم ، وَسَتحْصُل الدول على امتيازات أُخرى تتعلق بالزيادة الهائلة في توريد السِّلع ؛ لأَن اليهود المهاجرين هناك سوف يعتمدون لحقبة من الزمن على الإنتاج الأوربيّ ، فسيكون من الضَّروريّ لهم استيراده خلال هذه الفترة . وسوف تُحَافظ المجموعات المحليّة على التَّوازن العادل في الاستيراد ، فتستورد – لوقت طويل – الاحتياجات المَطْلُوبة من الجهات المعتادة .

وهناك مِيزة أُخرى ربما من أعظم الميزات ، وهي الارتياح الاجتماعيّ الذي

سَيتَولَّد ، فقد يَهْدأ القلق الاجتماعيّ خلال العشرين سنة أو أكثر التي تستغرقها هجرة اليهود ، وعلي أي حال سوف تستقر الأوضاع الاجتماعية خلال الفترة الانتقالية كلها .

إن الشَّكل الذي يُمْكِن أن تتخذه المشكلة الاجتماعية يتوقف كلية على تطور إمكاناتنا التكنولوجية .

لقد تسببت قوة البخار في تركز الناس في المَصَانع حول المَاكِينات ، فَتَزَاحَمُوا هناك ، وأصبح الزّحام مَصْدر تعاستهم .

إن معدل الإنتاج الحاليّ الهائل غير الحكيم وغير المُنَظَّم وهو السبب في الأزمة المُسْتَحْكَمة المستمرة التي تطحن كلًّا من أصحاب الأعمال والعمال على السواء .

فإذا كان البخار قد حَشَد الناس معًا ، فلعل الكهرباء تُفَرِّقهم مرة أخرى ، ولعلها تحدث في سوق العمل ازدهارًا .

مهما يكن الأَمر فإن مُخْتَرعينا التكنولوجيين ، وهم بحقّ الذين أَحسنوا للإنسانية سوف يستمرون في عَمَلهم بعد البدء في الهجرة ، وسوف يكتشفون أَشياء رائعة كالتي شاهدناها وربما أَروع مما شَاهَدْنَاه . لقد تَوَقَّفَتْ كلمة المستحيل عن الوجود من قَاموس العلوم التكنولوجية .

ولو أَنَّ رجلًا كان يعيش في القرن الماضي عاد إلى الأرض اليوم ، فسوف يجد الحياة الحاضرة حافلة بِسحْرٍ يستعصي عَليه فَهْمُه . فحيثما يظهر الرجل الحديث مع اختراعاتنا فإننا نُحَوِّل الصحراء إلى حديقة .

لكي نَبْني مدينة في عصرنا هذا قد نحتاج عددا من السنين بالقَدْر الذي كُنَّا

نحتاج في الماضي إلى عدد من القرون . وتُقدِّم لنا أمريكا أَمثلة على ذلك لا حَصْر لها .

لم تَعُد المسافات تُشَكِّل عائقًا . ولقد جمعتْ رُوحُ عَصْرِنا كُنوزًا عظيمة في مُستودعاتها . وفي كل يوم تزداد هذه الثروة ، هناك مائة ألف رأس مشغولة بالتفكير والبحث في كل بقعة من الأرض ، وأيًّا ما اكتشفه أحدهم ، يصبح في اللحظة التالية مِلْكًا لكل العالم .

ونحن أنفسنا سوف نستخدم ونستفيد من كل محاولة جديدة وننفذها في أَرْضنا اليهودية .

كما سَنُدْخل نظام السبع ساعات في اليوم كتجربة لصالح البشرية ، وسنُواصل عملنا في كل شيء بنفس الروح الإنسانية ، جاعلين من الأرض الجديدة أرض تَجارِب ودولة نموذجية .

وبعد رَحيل اليهود ستبقى إنجازاتُهم التي أبدعوها حيث كانت في الأصل ، ولن تَتَخَلَّف روح المشروعات اليهودية حيثما رَحَّبت بها الشعوب .

فالرأسماليون اليهود سيكونون سُعَداء باستثمار أموالهم ، حيث يألفون الظروف المحيطة ، وكما يخرج المال اليهوديّ بسبب الاضطهادات القائمة ، وتستغرقه المشروعات الأجنبية في أقصى الأرض ، سيعود ليتدفَّق مرة أخرى على أثر الحل السِّلميّ ، وسوف يُسْهِم في تَقَدُّم جديد بهذه البلاد التي فارقها اليهود .

۞ ۞ ۞ ۞

خاتمة

كم من الأشياء تَرَكْتُ بدون تَوضيح ، وكم من الخَلَل والأُمور السطحية المَعِيبة ، وكم من الأشياء المكررة عديمة الفائدة في هذا الكُتيب ، مما أمعنتُ فيه الفكرَ طويلًا ، وقُمْتُ بِتَصْحِيحه في كثير من الأحوال !

لكن القارئ المُنْصِف الذي يَتَمَتَّع بِقَدْرٍ من الفَهْم كافٍ لاستيعاب روح كَلِمَاتي لن تنفره هذه العيوب ، وإنما سينهض – على الأرجح – لِيُسْهِم بذكائه وطاقته في عمل ليس هو مهمة رجل واحد مفرد ، وسوف يحسنه .

هل شَرَحْت أشياء واضحة ، وأغفلت اعتراضات مُهِمَّة ؟

لقد حَاوَلتُ مُواجهةَ اعتراضات معينة ، ولكني أعلم أنَّ كثيرًا جدًّا من الاعتراضات سَيُثَار ، بعضها على أساس قويّ وبعضها بلا أساس . وإلى الفئة الأولى ينتمي الكلام القائل بأن اليهود لَيْسُوا وَحْدَهُم في العالم الذين هم في حالة مقلقة . وعلي هذا الزعم أرُدُّ قائلًا : دَعُونا نَبْدأ بإزالة قليل من هذا البُؤْس ، حتى ولو كان في بادئ الأَمر هو بُؤْسُنَا نحن .

وقد يُقال أيضًا بأنَّه لا يجب علينا أن نُثير تَفْرِقة جديدة بين الناس ، بل ليكن هَمُّنا أن نعمل على القضاء على التفرقة القديمة .

إن الذين يفكّرون بهذه الطريقة أناس حَالمون وَدُودُون ، ولكن فكرة « وَطن الأجداد » ستظل مُزْدهرة بعد أن يتلاشي – بلا أثر – غبار عظامهم في الهواء .

إنَّ الأُخُوَّةَ العامة ليست حتى حُلْمًا جميلًا ، فالتنافر ضروريّ لأعظم الجهود الإنسانية . ولكن عندما يستقرّ اليهود في دولتهم الخاصة ، قد لا يُصْبح لهم أعداء ، ومن ثَمَّ يُضْعفهم الرخاءُ ويُسَبِّبُ انكماشَهم ، وسُرعان ما قد يختفون كلية .

إنني أعتقد أن اليهود سيكون لهم دائمًا قَدْر كافٍ من الأعداء كأي أُمّة أُخرى ، ولكن حينما يَصْمُدون في أرضهم الخاصة فلن يمكنهم بعد ذلك أن يتفرقوا في العالم .

إنَّ تَشَتُّت الأُمَّة لن يَحْدُث مرة أخرى ، إلا إذا انهارت حضارة العالم بأسره . ومثل هذا الانهيار التام لا يَخْشَاهُ إلا أُناسًا أغبياء . إن حضارتنا الحالية تملك أسلحة قوية تكفي للدفاع عن نفسها .

هناك اعتراضات قائمة على أُسس واهية ، لأَنَّ هناك أُنَاسًا بُسطاء أكثر من النبلاء في هذا العالم ، ولقد حاولت أن أزيل بعض تلك الأفكار الغامضة ضيقة الأفق . ولكن كل من لديه الرغبة في أن يسير خلف علمنا الأبيض ذي النجوم السبعة ، يجب أن ينهض لمساعدتنا في هذه الحملة التنويرية . فربما سيكون علينا أَن نُحَارب أوّلًا ضد كثير من أبناء جِنسنا ، من أصحاب الأُفق الضَّيق والقلوب العليلة والتوجهات الفاسدة .

قد يقول أُناس : **إنني أُزَوِّد المُعَادين للسامية بأسلحة ضدَّنا ؟ ولم هذا ؟ ألأنَّني أَعترف بالحقيقة ؟ أَلأَنني لست حريصًا على الادّعاء بأنه ليس بيننا سوى أناس مُمْتازين ؟ أَلَن يزعم أُناس أنني أَكشف لأعدائنا عن الطريقة التي يُسيئون بها إلينا ؟**

إنني أعترض على هذا كله اعتراضًا تامًّا ، فمقترحاتي لا يمكن تنفيذُها إلا بالقبول الحُرّ من جانب الأغلبية العظمى من اليهود .

وقد يمكن إتخاذ إجراءات تَعسُّفية ضد أفراد ، أو حتى مجموعات من أكثر اليهود قوة ، ولكن الحكومات لا يُمكن أَن تَتَّخذ إجراءات ضد جميع اليهود .

إن حقوق اليهود في المُسَاواة أَمام القانون لا يمكن التَّراجع عنها ، حيثما تم الاعتراف بها ؛ لأنه حالما تبدأ محاولة للتراجع عنها ، سيندفع جميع اليهود مباشرة - الأغنياء منهم والفقراء على السَّواء - إلى صفوف الأحزاب الثورية .

إنَّ البدء في أي أعمال اضطهاد رسميّة ضد اليهود ، سوف يخلق دائما أزمة اقتصادية ، ومن ثَمَّ لا يمكن استخدام أي سلاح ضِدّنا بشكل فعَّال ؛ لأن هذا سوف يُؤذي اليد التي تَقْبض عليه . في غضون ذلك تنمو الكراهية حثيثًا ، قد لا يشعر بها أَغنياؤنا كثيرًا ، ولكن فُقراءنا يفعلون .

فلنسأل فقراءنا كم منهم دُفع به بقسوة إلى أسفل طبقات العمالة - منذ الإطاحة الأخيرة بالعداء للسامية - أكثر مما حَدَث قبلها ؟

قد يرىٰ بعض رجالنا الأثرياء أن الضغوط علينا لَيسَت بهذا القَدْر من القسوة لتبرير الهجرة ، وأن كل إخراج بالقوة يكشف لنا كيف أن شعبنا لا يريد الرَّحيل .

صحيح لأنهم لا يعرفون أين يذهبون ؛ لأنهم يخرجون من مصيبة ليقعوا في مصيبة أخرى . ولكننا سَنُريهم الطريق إلى أرض الميعاد . وعلى القوة الرائعة للحماس أن تُحارب القوة المسيطرة للعادة . صحيح أن الاضطهادات لم تَعُد من الخبث بمكان كما كانت في العُصُور الوسطي ، وإنما حساسيتنا هي التي تزايدت حتى أصبحنا لا نَشْعُر بتضاؤل المُعَاناة . لقد أنهكت أعصابنا الاضطهاداتُ الكثيرةُ على مرّ العُصُور .

وقد يقول أُناس من جديد : إن مَشْروعنا لا أَمل فيه ؛ لأنه حتى لو حصلنا على الأرض مع السِّيادة عليها ، فإن الفقراء وَحْدَهُم هم الذين سيذهبون معنا ؟

وهذا ما نُريده بالضبط في البداية ، الأكثر فقرًا ، فاليائسون هم الذين يتحوَّلون

إلى غُزَاة مَجِيدين .

وقد يقول أحدهم : لو كان مُمْكنًا لكان قد حَدَث من زمن طويل ؟ إنه لم يكن مُمْكِنًا من قبل ولكنه الآن ممكن . فمنذ مائة بل خمسين سنة فقط لم يكن هذا شيئا أكثر من حُلْم ، اليوم يمكن أن يصبح واقعًا .

إن أغنياءنا الذين لديهم الألفة الممتعة بكل إنجازاتنا التكنولوجية ، يَعْلَمون على وجه اليقين كيف يُمكن للمال الوفير أن يَصْنَع .

وهكذا سيكون الفُقراء والبسطاء فقط – الذين لا يعرفون أي قدرة يُمَارسها الإنسان الآن في تطويع قوى الطبيعة – هم الذين لديهم الإيمان القويّ بالرسالة الجديدة ؛ لأن هؤلاء لم يَفْقدوا أبدًا أَمَلَهم في أرض الميعاد .

فيا إخواننا اليهود هذه هي « أرض الميعاد » ، لا أُسطورة هي ولا خدعة . وكل إنسان يستطيع أن يختبر حقيقتها بنفسه ؛ لأن كل إنسان سيحمل معه قطعة من أرض الميعاد : بعضها في رأسه ، وبعضها بين ذراعيه ، وبعضها في ملكيته المكتسبة .

والآن قد تبدو الأُمور طويلة لا نهاية لها ، فحتى مع أفضل الظروف قد تمضي سنوات كثيرة قبل أن نبدأ في إقامة الدولة . وفي غضون ذلك سَيُعَاني اليهود في ألف مكان ومكان من الإهانات ، والإذلال ، وسوء المعاملة ، والضرب ، والنهب ، والموت . لكن لا ، إننا إذا بدأنا فقط في تنفيذ الخُطَط ، فإن العداء للسامية سيتوقف على الفَوْر وإلى الأبد . إنه تمام السَّلام .

إن أخبار تشكيل شركتنا اليهودية سوف يُحْمَل في يوم واحد إلى أقصىٰ مكان في الأرض ، بسرعة الضوء خلال أَسلاك التلغراف .

وسيعقب هذا على الفور شُعُور بالارتياح .

إن متعلمينا من الطبقة الوسطى سوف يجدون لهم مُتَنَفَّسًا في منظمتنا الأولى ، باعتبارهم أوائل المهندسين والضباط والأساتذة والموظفين والمحامين والأطباء .

وهكذا ستستمر الحركة في تَقَدُّم سريع ولكن مُمَهد . وسيرتفع الدعاء من أجل نجاح عملنا بين جدران المَعَابد وكذا الكنائس . حيث تأتي الراحة من العبء القديم الذي عانى منه الجميع . ولكن علينا أولًا أن نُحَرّر عقول الرجال . فلا بد أن تشق الفكرة طريقها إلى أبعد وأتعس الجُحُور التي يعيش فيها شعبنا .

إنهم سيستيقظون من ظلام الفكر عندما يَتَدفق في حياتهم معنى جديد .

كل إنسان يحتاج إلى أن يفكر في نفسه فقط ، وستتولى الحركة أكبر نصيب .

أي مَجْدٍ ينتظر أولئك الذين يُكَافِحون في سبيل هدف غير أنانيّ ، من أجل ذلك فإنني أعتقد أن جيلًا رائعًا من اليهود سوف ينبثق إلى الوجود ، سينهض « المكابيون » مرة أخرى . ولأُكرر مرة أخرى كلماتي الافتتاحية :

إنَّ اليهود الذين يُريدون الدولة اليهودية سَتَكُون لهم . وسَوف نَحيا أخيرًا رجالًا أحرارًا على أرضنا ، وسنموت بسلام في بيوتنا .

وسوف يَتَحَرّرُ العالم بِتَحَرُّرنا ، ويَغْتَني بثروتنا ، ويعظم بعظمتنا .

وأيًّا ما حاولنا إحرازه « هناك » من أَجل صالحنا ، فسوف يَرْتَدُّ بقوة وفائدة لخير الإنسانية .



المصادر والمراجع

أولًا : مصادر ومراجع باللغة العربية :

١ـ أحمد طربين ، فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار (١٨٩٧ - ١٩٢٢) ، (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٠) .

٢ـ جمال حمدان ، اليهود إنثروبولوجيا (القاهرة : دار الكتاب العربيّ للطباعة والنشر ، ١٩٦٧) .

٣ـ دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية (قسم الدراسات) ، ثيودور هيرتسل . عرّاب الحركة الصهيونية ، الطبعة الأولى ، (عمان : دار الجليل ، ١٩٨٦) .

٤ـ ديزموند ستيوارت ، ثيودور هرتزل مُؤَسّس الحركة الصهيونية ، ترجمة فوزي وفاء وإبراهيم منصور (بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر) .

٥ـ ستيفنس ، الصهيونية الأمريكية وسياسة أمريكا الخارجية ١٩٤٢ - ١٩٤٧ ، ترجمة جورج نجيب واكيم ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٦٧) .

٦ـ عباس محمود العقاد ، الصهيونية العالمية (القاهرة ، دار المعارف ، دون تاريخ) .

٧ـ عبد الوهاب محمد المسيري (وآخرون) ، موسوعة المَفاهيم والمصطلحات الصهيونية . رُؤْية نقدية (القاهرة : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، ١٩٧٥) .

٨ـ محمد أمين الحسينيّ ، حَقَائق عن قضيّة فلسطين ، الطبعة الأولى (القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٩٧٥) .

٩ـ مُنَظَّمة التحرير الفلسطينية ، يوميات هرتزل ، إعداد أنيس صايغ ، ترجمة هلدا شعبان صايغ (بيروت : مركز الأبحاث) .

ثانيًا : مراجع باللغة الإنجليزية :

1- Ben Halpern , The Idea of the Jewish State, Cambridge , Mass, Harvard University Press 1 1961 .

2- Oskar K. Rabinowez, Fifty Years of Zionism . A historical analysis of Dr. Weismanns « Trial and Error » , London , Robert Anmscombe & Co. , 1950 .

3- Sykes (Christopher) , Cross roads to Israel , London 1965 , Collins .



الكشاف

اتحاد الممولين : ١٣٧
إدارة العمل : ١٦١ ، ١٦٣
الأرجنتين : ١٠١، ١٠٢ ،
الأرض الحرة (كتاب) : ٦٥ ، ٦٦
أرض الميعاد : ١٢٩
الاشتراكيون : ٩٢
ألمانيا : ٨٩ ، ٩٤ ، ١٥٦
أمريكا : ١٥٦، ١٦٧
انجلترا : ١٠٨
أوربا : ١٢٠، ١٢٢ ،
الأوربيون : ١٠٠
ب . ناثان : ١٧٥
البارون : ١٥١
باريس : ٨٩ ، ١١٧ ، ١٥٦
برلين : ٩٠
بنما : ١١١
بيرة بافاريه : ١٥٦
تركيا : ١٠٢
التسلل الاصطناعي : ٨٢
تهويد المهن الفكرية : ١٥٤
توماس مور : ٦٥
الثورة الفرنسية : ١٢٦ ،
ثيودور هرتسكا : ٦٦
الجزائر : ٨٩
الجمعيات الصهيونية : ١٤٩
جمعيات الهجرة : ١٤٩
جمعية الدراسات (فرنسا) : ١٣٥
جمعية الدفاع ضد العداء للسامية : ١٧٥
جمعية اليهود : ٨٥ ، ١٠١ ، ١٦٤ ، ١٠٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٥٧
الجمعية اليهودية : ١٧٣
جنوب إفريقيا : ١٥٦
الجيتو : ٧٣ ، ٩١ ، ٩٥ ، ١٧١
حج الكاثوليك : ١٥٣
حج المحمديين : ١٥٣
حكومة ثيوقراطية : ١٧٢
دارون : ٨٠
الرأسماليون : ٩٢
رُسُّو : ١٥٩
روسيا : ٨٩ ، ١١٤ ، ١٥٦
رومانيا : ٨٩ ، ١١٤
ريب فان وينكل : ٧١
سَهْل لون شان : ١٥١
السويس (قناة السويس) : ١١١
سويسرا : ١٥٦ ، ١٧١
شركة إكس : ١٢٤
الشركة اليهودية : ٨٥ ، ١٠٣، ١٠٨ ، ١٢٣، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٥، ١٧٣
الشركة اليهودية القانونية : ١٠٨
شركة كوك : ١٢٨ ،

شركة واي وابنه : ١٢٤
الصراع الطبقي : ٩٢
الطبقة البرجوازية : ٧٨
ظاهرة الجمهرة : ١٤٨
العداء للسامية : ٧٤ ، ٨٩ ،٩٢،
٩٦ ، ٩٧
علماء الجولوجيا : ١١٢
فكرة وطن الأجداد : ١٨١
الفلاحون الأمريكيون : ١١٣
فلسطين : ١٠١ ، ١٠٢
الفيزيوقراطيون : ٧١
فيينا : ١٥٦
القدس : ٨٣
كاليفورنيا : ١٦٦
الكفيل : ١٦١
كفيل اليهود : ١٦٣
اللغة العبرية : ١٧١
لندن : ١٠٨ ، ١٦٣
لوردز : ١٥٣
ليسنج : ٧٣
المجموعات المحلية : ٨٥ ،١٢١،
١٣٩
المستوطنون الفقراء : ١٢٩
المسيحيون : ٨٤ ، ٩٦ ، ١٠٩،
١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٤٣ ،
١٧٧ ، ،
المسيحيون البرجوازيون : ٩٥
مصر : ١٥٦
معاهدات تبادل الامتيازات وتسليم
المجرمين : ١٧٣
مكة : ١٥٣
الملكية الخاصة : ١٣٠ ،
مناجم ذهب ويتووترز راند : ١٧٤
منتسكيو (الحكيم) : ١٦٩
ناتان الحكيم (كتاب) : ٧٣
نجونيوروم جستيو : ١٦١
نظام التخفيف بالعمل : ١١٧
نظام التعامل بالأشياء العينية : ١١٤
نظام السبع ساعات عمل في اليوم :
١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٢ ،
١٥٥ ، ١٧٨
نظام المساعدة بالعمل : ١١٧ ،
١٥٢
النمسا : ٨٩
النورج : ٩٤
الهجانوت : ٧٦
اليهود الفرنسيون : ٧٩ ، ٨٠ ،
يوتوبيا : ٦٥ ، ٦٧

تم بحمد الله

The Jewish State

By

Theodor Herzl

Translated By

Mohamed Yusuf Ades

Review and Introduction By

Professor Adel Hassan Ghoneym

Al-Imam al-Bokhary
Publishrs